نبأ زكريا عليه السلام

دراسة بلاغية في القرآن الكريم

إعداد

إبراهيم حسن أحمد

المدرس في قسم البلاغة والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية بقنا

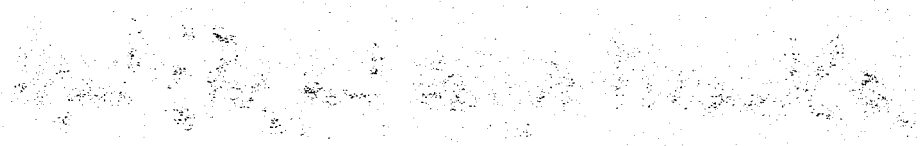

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي أودع من أسرار الإعجاز في كتابه مالا تستوعبه العقول، ولا تستنفده كثرة الدراسات، ولا يبلي جديده كرّ الليالي والسنين، والصلاة والسلام على من شرفه رب العالمين بما تنزل به الروح الأمين على قلبه بلسان عربي مبين، ليكون نذيراً ورحمة للعالمين.

ويعد...

فمنذ أربعة عشر قرنا من الزمان وكتاب الله المجيد يعطي كل طالب بقدر حاجته، ثم يبقي رصيده بعد ذلك معينا لا ينضب فياضاً لا يغيض، جديداً لا يخلق، يعطيك بقدر ما تعطيه، ويفتح لك في كل مرة بإشعاعات وإشراقات وإيحاءات بقدر ما تفتح له قلبك وروحك ونفسك، وهو في كل مرة جديد كأنك تتلقاه اللحظة وكأنك لم تقرأه ولم تسمعه من قبل، فهو وحده الذي لا يخلق علي كثرة الردّ، ولا تنتهي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء.

ومن هنا كان فضل الله وسبحانه – أن منحنى فضل إنعام النظر في بعض من آياته وسوره فطرقت الباب مجتهداً، وكلي أمل في أن يفتح الله لي أبواباً من الخير ورزقاً من الفهم فكان هذا البحث: (نبأ زكريا –عليه السلام– دراسة بلاغية في القرآن الكريم) جلست أمامه متأملاً بعض ما فيه من أسرار بلاغية تبهر العقول وتستجيش القلوب.

وكان وراء اختياري لهذا الموضوع مقصدان، أولهما: الرغبة في اختيار موضوع يتعلق ببلاغة القرآن الكريم؛ خدمة لكتابه العزيز وتقربا إليه بأحب الأعمال لديه، فلقد كان ولا يزال يتردد في صدري ما قاله الخطيب الإسكافي: "إن كلام الله –جل ذكره– .... هو الغنم الذي من حازه ظفرت يداه، ولم يجزع لفوت ما عداه"[1] وما قاله الزركشي في شأن كلام الله: "فالسعيد من صرف همته إليه ووقف فكره وعزمه عليه، والموفق من وفقه الله لتدبره واصطفاه للتذكير به وتذكره"[2].

---

(1) درر التنزيل وغرة التأويل، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ص٨.

(2) البرهان في علوم القرآن، بيروت، دار المعرفة، جـ١ ص٥.

ثانيهما: رأيت نبأ زكريا -عليه السلام- يمثل جزءاً من القصص القرآني والقصص القرآني وسيلة من وسائل الدعوة وتقويم النفوس، وفيه ما فيه من العبر والعظات: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[1] وفيه خير معين لصاحب الدعوة محمد -ﷺ-: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، فأردت أن أتبين في نبأ زكريا -عليه السلام- سمو كلام الله -تعالى- وسلطانه على كل كلام، مع علمي أنه كلام الله لا يستقصى معانيه فهم الخلق، ولا يحيط بوصفه على الإطلاق ذو اللسان الطلق مع الصدق والحق في كل ما جاء به: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾[3].

وقد اعتمدت في تناول هذا البحث على المنهج الكلي التحليلي الذي يعتمد على النظرة الكلية للنص في ضوء تجليات مفرداته، ومدي علاقة اللاحق منها بالسابق، وارتباط السابق باللاحق حتى يتجلى لنا الغرض في أتم صورة وأوضحها.

وقد جاء البحث في مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة، المقدمة فيها أهمية الموضوع والدافع إليه، والتمهيد فيه لمحة تاريخية عن نبي الله زكريا -عليه السلام- والمبحث الأول تناولت فيه نبأ زكريا في سياق سورة مريم، والمبحث الثاني تناولت فيه نبأ زكريا في سياق سورة آل عمران، وقد اتبعت الترتيب النزولي للسور لما له من تأثير في ترتيب الأحداث، والمبحث الرابع تناولت فيه أسرار التشابه والتنوع في نبأ زكريا -عليه السلام-.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل

الباحث

إبراهيم حسن أحمد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الأزهر

---

(1) يوسف: ١١١.

(2) هود: ١٢٠.

(3) آل عمران: ٦٢.

تمهيد

من الأنبياء الذين بعثهم الله -تعالي- إلي بنى إسرائيل: زكريا -عليه السلام-، وكانت حياته عبرة لمن يعتبر، وكان -عليه السلام- يعيش في ظل أسرة اختصها الله -تعالي- بمزيد من الفضل والعناية واصطفاها من بين خلقه وبارك فيها[1].

وكان زكريا -عليه السلام- في بيت المقدس يقوم عليه ويُعْنى بشأنه وهو من الأنبياء الذين بعثهم الله -تعالي- في بني إسرائيل يقومون خطاهم ويهدونهم سواء السبيل، وكان معه أحبار من بني إسرائيل منهم (عمران) والد (مريم) البتول، وكانوا جميعاً يجتهدون في الطاعة ويخلصون في التقرب إلي الله -تعالي-[2].

وكان زكريا -عليه السلام- يقوم علي كفالة مريم ابنة عمران حين نذرتها أمها لله -تعالي- وسلمتها إلي بيت المقدس بناء علي نذرها الذي نذرته، وكان أبوها قد مات قبل أن تولد فتنازع الأحبار مع زكريا -عليه السلام- الولاية عليها، كل منهم يريد أن يكون هو المختص بذلك، ولم ينته النزاع بينهم حتى اتفقوا علي أن يستهموا في ذلك، فكان السهم من نصيب زكريا -عليه السلام-، فتولي شأنها، وبني لها غرفة في أعلي بيت المقدس حتى تتفرغ للعبادة ولا يشغلها أحد عن ذكر الله -تعالي-[3].

وكان زدريا -عليه السلام- يدخل عليها الحين بعد الحين يتفقد أحوالها، ويقدم لها طعامها وشرابها فيري عندها رزقا، فلما سألها عن ذلك أجابت بقولها: هو من عند الله، وقد حكي القرآن الكريم ما دار بين زكريا -عليه السلام- ومريم البتول في قوله -تعالي-: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا

---

(1) ينظر: البداية والنهاية، لابن كثير، جـ٢ ص٤٣-٤٦.

(2) ينظر: التفسير الكبير جـ٨ ص٢٢، ٢٣.

(3) ينظر: التفسير الكبير جـ٨ ص٣١، ٣٢.

الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

أمام هذا العطاء الإلهي الذي لا يحتاج إلي أسباب نظر زكريا -عليه السلام- إلي نفسه وقد بلغه الكبر وأدركه المشيب وأوشك علي فراق الدنيا دون أن يكون له عقب يرثه ويرث من آل يعقوب، فلماذا لا يطلب من الله -جلت قدرته- أن يرزقه ولداً مع انعدام الأسباب؟ وها هو ذا يري نعم الله تتري على مريم -عليها السلام-.

ولعل زوجة زكريا -عليه السلام- كانت متطلعة مثل زوجها للولد، بل لعلها كانت تدعو ربها بلسان حالها، ولسان مقالها أن يسعدها بغلام يملأ عيها حياتها أنسا وأملاً، فالأمومة في داخل المرأة تريد أن تعلن عن نفسها دائماً، وتكره أن تُعطل، فوافقت دعوة زكريا -عليه السلام- دعوة زوجته، وتفتحت أبواب السماء للدعوتين، وأجاب الله رجاء الشيخين ومن عليهما بيحيى -عليه السلام-.

وقد أورد القرآن الكريم نبأ زكريا -عليه السلام- في ثلاث سور هي -حسب ترتيبها في المصحف الشريف: سورة آل عمران وسورة مريم، وسورة الأنبياء، أما ترتيبها من حيث النزول فهي كالآتي: سورة مريم أولاً، ثم تتلوها سورة الأنبياء، ثم تتبعهما سورة آل عمران، وفي بحثي هذا سأتناول نبأ زكريا -عليه السلام- معتمداً علي الترتيب النزولي للسور التي ورد فيها، مستعيناً بحول الله وقوته سائلاً إياه العون والسداد.

---

(1) آل عمران: ٣٧.

المبحث الأول

زكريا -عليه السلام- في سياق سورة مريم

قال -تعالى-: ﴿كهيعص ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[1] صدق الله العظيم.

هذا هو حديث زكريا -عليه السلام- في سورة مريم، وقد استهلت هذه السورة مثل بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، فمطلعها قوله -تعالى-: (كهيعص)، وهذا المطلع مكون من خمسة حروف هي: الكاف، والهاء، والياء، والعين، والصاد، وهذه الحروف المقطعة كانت ولا تزال مثار حيرة للعلماء ومصدر أقوال متعددة للمفسرين.

تحير المفسرون في محل هاته الحروف الواقعة في أول هاته السور، وفي فواتح سور أخري عدة جميعها تسع وعشرون سورة، ومعظمها في السور المكية، وكان بعضها في ثاني سورة نزلت وهي (ن والقلم)، وأخلق بها أن تكون مثار حيرة ومصدر أقوال متعددة، وأبحاث كثيرة، ومجموع ما وقع من حروف الهجاء أوائل السور: أربعة عشر حرفا، وهي نصف حروف الهجاء، وأكثر السور التي وقعت فيها هذه الحروف: السور المكية عدا البقرة وآل عمران، والحروف الواقعة في السور

---

(1) مريم: ١-١١.

هي: أ، ح، ر، س، ص، ط، ع، ق، ك، ل، م، ن، هـ، ي، بعضها تكرر في سور وبعضها لم يتكرر، وهي من القرآن لا محالة، ومن المتشابه في تأويلها[1].

ولا خلاف أن هاته الفواتح حين ينطق بها القارئ أسماء لحروف التهجي التي ينطق في الكلام بمسمياتها، وأن مسمياتها الأصوات المكيفة بكيفيات خاصة تحصل في مخارج الحروف؛ ولذلك إنما يقول القارئ: (ألف لام ميم) مثلاً، ولا يقول: (ألم)، وإنما كتبوها في المصاحف بصورة الحروف التي يتهجى بها في الكلام التي يقوم رسم شكلها مقام المنطوق به في الكلام، ولم يكتبوها بدوال ما يقرأونها به في القرآن لأن المقصود: التهجي بها، وحروف التهجي تكتب بصورها لا بأسمائها، وقيل: لأن رسم المصحف سنة لا يقاس عليه[2].

أما عن المراد بهذه الحروف فللعلماء في تأويلها آراء متعددة، وأقوال متنوعة تربو على العشرين رأياً، والأرجح من تلك الأقوال ثلاثة: وهي كونها أسماء للسور الواقعة هي فيها، أو كونها أقساما أقسم بها لتشريف قدر الكتابة، وتنبيه العرب الأميين إلى فوائد الكتابة، لإخراجهم من حالة الأمية[3]، أو كونها سيقت مساق التهجي مسرودة على نمط التعديد في التهجية تبكيتا للمشركين وإيقاظاً لنظرهم في أن هذا الكتاب المتلو عليهم وقد تحدوا بالإتيان بسورة مثله هو كلام مؤلف من عين حروف كلامهم، كأنه يغريهم بمحاولة المعارضة، ويستأنس لأنفسهم بالشروع في ذلك بتهجي الحروف، ومعالجة النطق تعريضا بهم بمعاملتهم معاملة من لم يعرف تقاطيع اللغة فيلقنها كتهجي الصبيان في أول تعلمهم، حتى يكون عجزهم عن المعارضة بعد هذه المحاولة عجزاً لا معذرة لهم فيه[4].

---

(1) التفسير الكبير، جـ٢ ص٢-٧، ابن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر جـ١ ص٢٠٦.

(2) ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج١، ص١٩، التحرير والتنوير، حـ١ ص٢٠٦.

(3) ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكاتب العربي، حـ١ ص١٥٦، التحرير والتنوير حـ١ ص٢٠٦.

(4) ينظر: الكشاف حـ١ ص٢٧، التحرير والتنوير حـ١ ص٢١٢، أضواء البيان، حـ٣ ص٣-٦.

وأرجح هذه الأقوال الثلاثة هو آخرها، "وتظهر المناسبة لوقوعها في فواتح السور أن كل سورة مقصودة بالإعجاز، لأن الله -تعالى- يقول: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[1]، فناسب افتتاح ما به الإعجاز بالتمهيد لمحاولته، ويؤيد هذا القول: أن التهجي ظاهر في هذا المقصد فلذلك لم يسألوا عنه لظهور أمره، وأن التهجي معروف عندهم للتعليم، فإذا ذكرت حروف الهجاء على تلك الكيفية المعهودة في التعليم في مقام غير صالح للتعليم عرف السامعون أنهم عوملوا معاملة المتعلم، لأن حالهم كحالة في العجز عن الآتيان بكلام بليغ، ويعضد هذا الوجه تعقيب هاته الحروف في غالب المواقع بذكر القرآن وتنزيله أو كتابيته إلا في (كهيعص، وآلم أحسب الناس، وآلم غلبت الروم)[2] يقول الزمخشري: "وهذا القول من القوة والخلاقة بالقبول بمنزل"[3].

دعاء واسترحام واستعطاف:

بعد هذا المطلع وما فيه من غموض وخفاء وكأنه تنبيه وتشويق لما بعده يأتي قوله -تعالى-: (ذكر رحمت ربك عبده زكريا)، و(ذكر) إما أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، والتقدير: هذا ذكر رحمة ربك، وهو بمعنى: اذكر، وإما أن يكون مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: مما نقص عليك، أو فيما يتلى عليك ذكر رحمة ربك عبده زكريا، واختار الطبري القول الأول قائلاً: "والقول الذي هو الصواب عندي في ذلك أن يقال: الذكر مرفوعٌ بمضمر محذوف وهو (هذا) كما فُعل ذلك في غيرها من السور وذلك كقول الله ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[4]، وكقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا

---

(1) بعض آية من سورة البقرة: ٢٣.

(2) التحرير والتنوير: حـ١ ص٢١٣، وينظر: أضواء البيان، حـ٣ ص٣-٦.

(3) الكشاف: حـ١ ص٢٨.

(4) التوبة: ١.

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾[1] ونحو ذلك[2]، وحذف المبتدأ هنا للعلم به لأن مثله شائع الحذف في أمثال هذا من العناوين، وأيضاً فيه تعجيل بالمسرة، لأن الخبر مما تسر به النفس وتسعد.

والذكر في الآية مصدر مضاف إلى فاعله وهو (رحمت) على الاتساع، و(عبده) منصوب بنفس الذكر، والتقدير: أن ذكرت الرحمة عبده، فجعلت الرحمة ذاكرة له مجازاً[3]، وحقيقة الإسناد: ذكر ربك عبده، ويفيد هذا التجوز المبالغة في الرحمة التي أفاض الله بها على عبده زكريا -عليه السلام- وهذا التجوز أضفى على الرحمة شوبا من الحياة، حيث أصبحت ذاكرة له غامرة وكأنها قد تأثرت بدعائه وتضرعه فذكرته مجيبة دعاءه، وثمت فرق بين قولنا: ذكر ربك عبده زكريا، والنظم الكريم الذي يصور لنا الرحمة —وهي معنى من المعاني- كائنا حياً يذكر زكريا -عليه السلام- ويتعاطف معه، يقول الألوسي: "ومعنى ذكر الرحمة، بلوغها وإصابتها كما يقال: ذكرني معروفك، أي: بلغني"[4].

و (ذكر) مصدر مضاف إلى فاعله وهو الرحمة، والرحمة مصدر أيضاً مضاف إلى فاعله وهو (رب) المضاف إلى كاف الخطاب (ربك)، وهذه الإضافات مع كثرتها وتتابعها غير أنها في قمة الفصاحة والبلاغة، فهي ليست من الإضافات الثقيلة على اللسان التي تخل بفصاحة الكلام، وتجهد الناطق بها دون فائدة، إن تتابع الإضافات هنا في رقته وسلاسته كأنه تتابع الرحمة وهي تذكر زكريا -عليه السلام- فتمس شغاف قلبه فتبشره بيحيى -عليه السلام- فتبشره بصفات ليحيى -عليه السلام- يكون بها بمثابة أمة في تصديقه وعلو شأنه في قومه ونبوته وبعده عما يغضب الله —تعالى-.

وفي إضافة الرحمة إلى (رب) في قوله —تعالى- (رحمت ربك) إشعار بأنها رحمة واسعة نافذة لا تتوقف عند حدود الأسباب، لأنها ليست رحمة الإنسان للإنسان، وإنما هي رحمة رب منعم

---

(1) النور: ١.

(2) الطبري: جامع البيان، دار الفكر، حـ١٦ ص٤٥.

(3) ينظر: السمين الحلب: الدر المصون، ط الحلبي حـ٧ ص٥٦٢.

(4) روح المعاني: حـ١٦ ص٥٨.

وسعت رحمته كل شيء، فلا يقف أمامها حاجز الشيخوخة، أو العقم من أن تهب الولد لزكريا -عليه السلام-، "وانظر إلي لطافة المعني في إضافة (رب) إلي ضمير المخاطب فإن في هذه الإضافة تذكيراً للمخاطب بجلائل النعم التي تفيض من الربوبية على المربوب، والرعاية التى تحيط به من كل جانب وحسن التدبير"[1].

والخطاب في (ربك) لرسولنا محمد -ﷺ- ووصف الربوبية "فيه لفت إلي أنه رباك أحسن تربية ونشأك أكرم تنشئة ورعاك خير رعاية، وهو ربك الذي قربك أفضل تقريب، وزادك شرفاً بإضافتك إلي حضرته ثم إنه ربي نفسك وقلبك وروحك بهذا الوحي، فكنت خير خلقه قوة نفس وصحة وجدان وصفاء روح"[2]، والإضافة في (ربك) فيها تشريف وتكريم لمحمد -ﷺ- وتطمين له بأن الرحمة التى وهبت الولد للشيخ الكبير والمرأة العاقر قريبة منه، وأن الله يحوطه بعنايته ورحمته فلا يخاف ولا يحزن لتكذيب الكفار له، وإنكارهم لدعوته، وقولهم إنكاراً للبعث ﴿أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾[3]، وقولهم إنكاراً لفضل المؤمنين: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾[4]، وقول قائلهم متآليا على الله -تعالي-: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[5]، وقولهم عن الله -سبحانه-: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾[6].

ونصب (عبده) بنفس الذكر، والضمير عائد للفظ (رب)، وإضافة العبد للضمير العائد على لفظ (رب) فيه تنويه بشأن زكريا -عليه السلام- وذكره بصفة العبودية فيه تكريم وتشريف له، فهو عبد لله لا لغيره وفي هذا ما فيه من العزة والفخر.

---

(1) د/عبد العظيم المطعني: دراسات جديدة في إعجاز القرآن، ص٢٩٤، ٢٩٥.

(2) د/محمد أبو موسى: من أسرار التعبير القرآني، ص٥١.

(3) مريم: ٦٦.

(4) مريم: ٧٣.

(5) مريم: ٧٧.

(6) مريم: ٨٨.

ونصب (زكريا) على البدل أو البيان من (عبده) وكان يمكن أن يقال في غير القرآن: ذكر رحمة ربك زكريا، إلا أن التنصيص علي عبودية زكريا -عليه السلام- لله- تعالي- فيه تنويه بشأنه، وأنه تمثل العبودية بكاملها لله -تعالي-، وأنه يعد أسوة للعبد الصابر الراجي رحمة ربه، وأنه ما مل الدعاء بل كان متيقظاً مستدراً رحمة ربه فما إن رأي عطاء الله -تعالي- يتنزل علي مريم بغير حساب حتى خشع ضارعاً في محراب العبودية طالباً من الله -تعالي- (وليا) فاستحق بهذه العبودية الخاشعة أن تذكره رحمة الله بإجابة دعائه، فكل هذه العطاءات ما كانت لتبدو واضحة لولا هذا اللفظ الشريف (عبده).

و(إذ) ظرف لـ (رحمت) أي: رحمة الله إياه في ذلك الوقت[1] و(نادي ربه) أي: دعا ربه، والإضافة فيها تشريف وتكريم لزكريا -عليه السلام-، وأوثرت كلمة (رب) بالذكر دون غيرها من أسماء الله -تعالي- وصفاته الحسني، "لأن في (رب) من الدقائق التى تناسب المقام ما ليس في غيرها من الأسماء والصفات الحسني، فمن كلمة (رب) تشع معاني التربية والإنعام والتدبير والرعاية"[2]، والمقام هنا مقام دعاء وخشوع وتضرع، وفي كلمة (رب) من روح التودد والتلطف والإنة الخطاب ما يجعلها ربة الموقف في هذا المقام الخاشع الضارع، وقوله: (نداء خفيا) أي: دعاه دعاء سراً، "لأن الجهر والإخفاء عند الله سيان فكان الإخفاء أولي؛ لأنه أبعد عن الرياء وأدخل في الإخلاص"[3].

والنداء في الأصل: رفع الصوت وظهوره، ومن شرط النداء الجهر[4]، فكيف الجمع بين (نداء) و(خفيا) في قوله -تعالي-: (إذ نادي ربه نداء خفيا)؟ والجواب على ذلك -كما يقول

---

(1) ينظر: تفسير النسفي حـ٣ ص٢٨، التحرير والتنوير: حـ١٦ ص٦٢.

(2) دراسات جديدة في إعجاز القرآن: ص ٢٧٩.

(3) التفسير الكبير حـ٢١، ص١٨١، وينظر: محمد الأمين الشنقيطي: أضواء البيان حـ٤ ص٢٠٤، صديق حسن خان: فتح البيان حـ٨ ص١٣٤، وتفسير النسفي حـ٣ ص٢٨.

(4) ينظر: المفردات: مادة (ندا)، لسان العرب: مادة (ندي).

الرازي- من وجهين: "الأول: أنه أتي بأقصي ما قدر عليه من رفع الصوت إلا أن الصوت كان ضعيفاً لنهاية الضعف بسبب الكبر، فكان نداء نظراً إلي قصده، وخفيا نظراً إلي الواقع، الثاني: أنه دعا في الصلاة؛ لأن الله -تعالي- أجابه في الصلاة....، فكون الإجابة في الصلاة فوجب أن يكون النداء فيها خفيا"[1].

وفصل بين قوله -تعالي-: (إذ نادي ربه نداء خفيا)، وقوله -تعالي-: (قال رب إني وهن العظم مني)، لأن هذا تفسير لذاك وبيان له، فهو من كمال الاتصال "ولذلك ترك العاطف بينهما لشدة الوصل"[2].

وهذا الفصل يقول فيه البلاغيون: "إنه أشد اتصالاً من الوصل، يعني أن الجملة الثانية التى بدون الفاء هي الجملة الأولي، والمعول عليه في إدراك هذه الوحدة بين الجملتين هو العقل الذي أدرك أن الثانية مفسرة للأولي، وإذا جاءت هذه الفاء كانت نصاً في التفسير والبيان، وكأنها تبادر السامع بهذا التفسير وهذا البيان فيعلم بدياً أن ما بعد الفاء بيان لما قبلها"[3].

وزكريا -عليه السلام- لا يريد بقوله: (رب إني وهن العظيم منى واشتعل الرأس شيبا) أن يخبر الله -تعالي- بحاله؛ لأنه يعلم أن الله لا يخفي عليه شئ، ولكنه قصد مجرد إظهار ضعفه ونفاذ قوته استدراراً لرحمة ربه واستعطافاً لكرمه.

والإطناب واضح فى هذه الآية الكريمة (رب إني وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا) إذا المراد: رب كبرت، فزادت الألفاظ عن المعاني، ولكنها لفائدة إظهار الضعف وتأكيده؛ لأن قولنا: كبرت، إنما تدل على تقدم السن فقط، وقد يكون مع تقدم السن قويا، وزكريا -عليه السلام- يريد أن

---

(1) التفسير الكبير: حـ٢١ ص١٨١.

(2) الدر المصون: حـ٧ ص٥٦٤.

(3) د/محمد أبو موسى: شرح أحاديث من صحيح البخاري، ص٣٧.

ينص على أنه ضعيف الجسم زيادة على كبر سنه، وليس أدل على غرضه هذا من وهن العظم وانتشار الشيب.

و(رب) منادى محذوف الياءين: ياء النداء، وياء المتكلم، والأصل: يا ربي، فحذفت ياء المتكلم للعلم بها، ولدلالة الكسرة عليها، وحذفت ياء النداء "للتيسير في الأداء، لأن توجيه الدعاء إلي (رب) كثير على ألسنة العباد فناسب ذلك التيسير عليهم، وهم يتضرعون إلي ربهم القريب منهم، والياء لمناداة البعيد، والذي سوغ هذا الحذف فوق ما تقدم أن المقام يدل على المحذوف بكل وضوح ويسر"[1]، وفي ندائه بـ (رب) إشارة إلي أنه مستجيب له، فهو مربيه وراعيه ومتولي أمره.

والوهن: ضعف من حيث الخلق[2]، وقد وهن ووهن بالكسر يهن، أي: ضعف[3]، وزكريا -عليه السلام- بقوله: (إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا) يريد أن يخبر بمنتهي ضعفه باطناً وظاهراً، فأشار إلي ضعف الباطن بوهن العظم، وأشار إلي ضعف الظاهر بشيب الرأس، وقدم وهن العظم على شيب الرأس؛ لأن "الضعف الذي يظهر في الباطن أقوى مما يظهر في الظاهر؛ فلهذا السبب ابتدأ ببيان الضعف الذي في الباطن"[4].

ولسائل أن يسأل: لماذا خص زكريا -عليه السلام- العظم بالوهن من بين سائر أعضائه؟ والمفسرون يجيبون عن هذا التساؤل قائلين: إن إسناد الوهن إلى العظم دون غيره مما شمله الوهن في جسده؛ لأنه أوجز في الدلالة على عموم الوهن جميع بدنه، لأن العظم هو قوام البدن وهو أصلب شيء فيه، فلا يبلغه الوهن إلا وقد بلغ ما فوقه[5]، وإنما جعلت العظام أصلب شيء في البدن حتى

---

(1) د/عبد العظيم المطعني: دراسات جديدة في إعجاز القرآن، ص٢٧٣-٢٧٤.

(2) المفردات في غريب القرآن: مادة (وهن).

(3) لسان العرب: مادة (وهن).

(4) التفسير الكبير: حـ٢١ ص١٨٣.

(5) ينظر: تفسير النسفي: حـ٣ ص٢٨، نظم الدرر: حـ١٢ ص١٦٨، التحرير والتنوير: حـ١٦ ص٦٤.

تكون أساساً وعمداً يعتمد عليها سائر الأعضاء؛ لأن الأعضاء كلها موضوعة على العظام، وإذا كان العظم أصلب الأعضاء فمتى وصل الأمر إلى ضعفه كان ضعف ما عداه أولى، ولأن العظم إذا كان حاملاً لسائر الأعضاء كان تطرق الضعف إلى الحامل موجبا لتطرقه إلى المحمول؛ فلهذا السبب خص العظم بالوهن من بين سائر الأعضاء[1].

وأوضح السكاكى سر إفراد (العظم) في دعاء زكريا - عليه السلام - فقال: إن المعرف بلام الجنس إذا كان مفرداً فهو أشمل في الاستغراق من الجمع، وبناء عليه فإن إفراد العظم إشارة إلى شمول الوهن كل فرد من أفراد العظام بخلافه مجموعا فإنه يشمل الجموع لا الآحاد وهو ضرب من الإيجاز في اللفظ والإطناب في المعنى[2]. ويقول أيضاً: "ثم لطلب شمول الوهن العظام فرداً فرداً... ترك جمع العظم إلى الإفراد لصحة حصول وهن المجموع بالبعض دون كل فرد فرد فحصل ما ترى، وهو الذي في الآية: (إني وهن العظم منى)[3].

ولو أننا توقفنا قليلاً أمام ما ذكره السكاكى، وهو أن استغراق المفرد يكون أشمل من استغراق الجمع، بمعنى: أنه لو قيل: وهن العظام منى، لصح مع وهن بعضها، لأنه يكفي في وهن المجموع وهن بعضه، بخلاف (وهن العظم) لأن الاستغراق فيه يشمل كل فرد من أفراد العظام لو توقفنا أمام ما ذكره الشيخ لرأيناه مخالفاً لما ذكره قبل ذلك بقليل حيث قال: "ثم إن الحقيقة لكونها من حيث هي هي، لا متعددة لتحققها مع التوحد، ولا متعددة لتحققها مع التكثر، وإن كانت لا تنفك في الوجود عن أحدهما، صالحة للتوحد والتكثر، فيكون الحكم استغراقا أو غير استغراق إلى

---

(1) ينظر: التفسير الكبير: حـ٢١ ص١٨٣، حاشية الشهاب: حـ٦ ص١٤٣، البحر المحيط حـ٧ ص٢٣٩.

(2) ينظر: مفتاح العلوم: ص٢١٦.

(3) مفتاح العلوم: ص٢٨٦، وينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان حـ١٦ ص٣٦.

مقتضي المقام، فإن كان خطابيا مثل: المؤمن غر كريم، والمنافق خب لئيم حمل المعرف باللام مفرداً كان أو جمعاً على الاستغراق"[1].

الاستغراق وعدمه إذاً مرجعه إلي مقتضي المقام في المفرد والجمع معاً، وقد ردّ سعد الدين التفتازاني القول بأن استغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع، وأبطل ما ذهب إليه السكاكي قائلاً: "بل الجمع المحلى بلام الاستغراق يشمل الأفراد كلها، مثل المفرد، كما ذكره أئمة الأصول والنحو، ودل عليه الاستقراء، وصرح به أئمة التفسير في كل ما وقع في التنزيل من هذا القبيل، نحو: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ﴾[2]-إلي أن قال-: "فظهر بطلان ما ذكره صاحب المفتاح في قوله -تعالي-: (رب إني وهن العظم مني)، أنه ترك جمع العظم إلي الإفراد لطلب شمول الوهن للعظام فرداً فرداً، لصحة حصول وهن المجموع بوهن البعض دون كل فرد، يعني: يصح إسناد الوهن إلي صيغة الجمع، نحو: وهنت العظام عند حصول الوهن لبعض من العظام دون كل فرد، ولا يصح ذلك في المفرد؛ وذلك لأنا لا نسلم صحة قولنا: وهنت العظام باعتبار وهن البعض"[3].

واعترض الخطيب على السكاكي فيما جعله سببا للعدول عن لفظ العظام إلي لفظ العظم، قائلاً: "وعليك أن تتنبه لشئ، وهو أن ما جعله سببا للعدول عن لفظ العظام إلي لفظ العظم فيه نظر، لأنا لا نسلم صحة حصول وهن المجموع بوهن البعض دون كل فرد"[4]. فلا فرق بين دخول (أل) الاستغراقية علي الجمع ودخولها على المفرد. ولا فرق بين استغراق المفرد واستغراق الجمع.

---

(1) مفتاح العلوم: ص٢١٥، ٢١٦، وينظر: الإيضاح حـ١ ص٩٩.

(2) البقرة: ٣٣.

(3) المطول: ص٨٤، ٨٥، وينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص٦٢٨.

(4) الإيضاح: حـ٢ ص١٢٧.

ويمضي الخطيب في كلامه مبينا الوجه في إفراد العظم فيقول: "فالوجه في ذكر العظم دون سائر ما تركب منه البدن، وتوحيده ما ذكره الزمخشري، قال: إنما ذكر العظم؛ لأنه عمود البدن وبه قوامه وهو أصل بنائه، وإذا وهن تداعي وتساقطت قوته، ولأنه أشد ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن، ووحده؛ لأن الواحد هو الدال على معني الجنسية، وقصده إلي أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن، ولو جمع لكان قصداً إلى معنى آخر، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه، ولكن كلها"[1].

فاختصاصه العظم بالوهن مع إرادته وهن الجسم بكامل أعضائه ومكوناته أبلغ مما صرح بوهن الجسم؛ لأن العظم هو الهيكل الذي يقوم عليه بناء الجسم، وضعفه يستلزم بالضرورة ضعف ما هو قائم به، هذا هو الذي من أجله أفرد العظم؛ ليكون الوهن مسلطاً على الجنس، لا على أفراده، فإذا ما جمع سلط الوهن على الأفراد[2]، "حتى كأنه وقع من سامع شك في الشمول والإحاطة؛ لأن القيد في الكلام ناظر إلى نفى ما يقابله، وهذا غير مناسب للمقام"[3]، وغير ما أراده النظم الكريم ودون ما أراده بلاغة.

وفي توضيح البهاء السبكي لما قاله الزمخشرى ما ينبي عن الفرق الدقيق بين الصيغتين، يقول: "يريد أنه قصد الحكم على حقيقة العظم، فإن الحكم عليها يستلزم الحكم على أفرادها كما ذكرنا، ولو جمع لقصد الحكم على الأفراد أولاً، والأول أبلغ، وإليه يشير بقوله: (لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية) يريد أن الجمع لا يدل على الجنسية، إنما يدل على أفرادها، فحيث قصد الحكم على الأفراد جمع إشارة إلى اختلاف أنواعها"[4].

---

(1) الإيضاح: حـ٢ ص١٢٧، الكشاف: حـ٣ ص٤، وينظر: البحر المحيط: حـ٧ ص٢٣٩.

(2) ينظر: د/ الخضرى، الإعجاز البياني، ص٢١١-٢١٤.

(3) روح المعاني: حـ١٦ ص٦٠.

(4) عروس الأفراح (شروح التلخيص): جـ١ ص٣٣٩.

وقال: (العظم مني)، ولم يقل: عظمي، مع أنه أخصر؛ لما فيه من التفصيل بعد الإجمال، ولأنه أصرح في الدلالة على الجنسية المقصودة هنا، وجاءت هذه الجملة: (إني وهن العظم مني) مؤكدة؛ لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونها[1].

والواو في قوله -تعالى-: (واشتعل الرأس شيبا) عاطفة على جملة (وهن اعظم مني")، والعطف بين الجملتين لأنهما خبريتان لفظا ومعنى، فبينهما التوسط بين الكمالين، والخبران أريد بهما إظهار الضعف والاسترحام، وإنما قدم وهن العظم على شيب الرأس؛ لأن "الضعف الذي يظهر في الباطن أقوى مما يظهر في الظاهر"[2].

وأصل الاشتعال أن يكون في النار، يقال: شعل النار يشعلها، وشعلها وأشعلها، فاشتعلت وتشعلت: ألهبها فالتهبت. وقال اللحياني: اشتعلت النار: تأججت في الحطب، وقال مرة: نار مشعلة: ملتهبة متقدة، والشعلة: واحدة الشعل، والشعلة والشعلول: اللهب. والشعيلة: النار المشعلة في الذبال. واشتعل الشيب في الرأس: اتقد، وأصله من اشتعال النار[3].

وقال الراغب في مفرداته: الشعل: التهاب النار، يقال: شعلة من النار وقد أشعلتها. والشعيلة: الفتيلة إذا كانت مشتعلة. وقيل: بياض يشتعل. (واشتعل الرأس شيبا) تشبيها للاشتعال من حيث اللون. واشتعل فلان غضبا: تشبيها به من حيث الحركة[4].

وفي ضوء المعنى اللغوي لمادة (شعل) نجد أن معنى قوله -تعالى- (واشتعل الرأس شيبا) أي: ابيض شعر الرأس وانتشر فيه الشيب حتى أتى عليه، فإن قيل: لماذا ذكر الرأس ولم يذكر اللحية؟ فالجواب على ذلك ما ذكره ابن منظور حيث قال: "ودخل في قوله: (الرأس) شعر الرأس

---

(1) ينظر: روح المعاني حـ١٦ ص٦٠، وحاشية الشهاب حـ٦ ص١٤٤.

(2) التفسير الكبير: حـ٢١ ص١٨٣.

(3) لسان العرب: مادة (شعل).

(4) المفردات في غريب القرآن: مادة (شعل).

واللحية؛ لأنه كله من الرأس"[1]؛ ولأن الرأس لا يعمه الشيب إلا بعد أن يعم اللحية غالباً، فعموم الشيب في الرأس أمارة التوغل في كبر السن[2].

ونعود إلى التشبيه البديع الذي أخرج مخرج الاستعارة كما يقول المفسرون[3]، فنجد أن الزمخشري يقول في كشافه: "شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر وفشوه فيه، وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار، ثم أخرجه مخرج الاستعارة"[4].

وقد فصل الشهاب في حاشيته على البيضاوي قائلاً: "وظاهر كلام الشيخين أن فيه استعارتين مبنيتين على تشبيهين، أولاهما: تصريحية تبعية في (اشتعل) بتشبيه المبيض في غيره باشتعال النار...، والثانية: مكنية بتشبيه الشيب في بياضه وإنارته باللهب...، وقيل: إن الاستعارة هنا تمثيلية، فشبه حال الشيب بحال النار في بياضه وانتشاره"[5].

وفي ضوء ما ذكره الشهاب يتبدى لنا أن القول الكريم (واشتعل الرأس شيبا) فيه أكثر من وجه للاستعارة.

الوجه الأول: أن فيه استعارة تصريحية تبعية تبدو في الفعل اشتعل، حيث شبه انتشار الشيب باشتعال النار بجامع البياض والانتشار، ثم اشتق من الاشتعال اشتعل بمعنى انتشر، وهذا

---

(1) لسان العرب: مادة (شعل).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: حـ١٦ ص٦٤.

(3) ينظر: البحر المحيط: حـ٧ ص٢٣٩، إرشاد العقل السليم: حـ٣ ص٢١٤، فتح البيان: حـ٦ ص٥، حاشية الشهاب: حـ٦ ص١٤٤، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان: حـ١٦ ص٣٦.

(4) الكشاف: حـ٣ ص٤.

(5) حاشية الشهاب: حـ٦ ص١٤٤، وينظر: د/بسيوني فيود: من بلاغة النظم القرآني، ص٣٥٤.

الوجه ذكره النيسابوري قائلاً: "ويمكن تقرير الاستعارة بوجه آخر، وهو أن يكون استعمل (اشتعل) بدل انتشر، فتكون الاستعارة تبعية تصريحية، وقرينتها ذكر الشيب"[1].

الوجه الثاني: أن فيه استعارة مكنية تبدو في لفظ (شيبا) حيث شبه الشيب في بياضه وإنارته وانتشاره بلهب النار، ثم حذف المشبه به وهو لهب النار، ورمز له بشيء من لوازمه وهو (اشتعل) لأن الاشتعال من لوازم اللهب والنار على سبيل الاستعارة المكنية.

الوجه الثالث: وقد جاء بصيغة التضعيف (وقيل) — أن فيه استعارة تمثيلية، حيث شبه حال الشيب وانتشاره وعمومه شعر الرأس بحال النار وانتشارها فى الفحم. وقد أخذ بهذا الوجه ابن عاشور حيث يقول: "شبه عموم الشيب شعر رأسه أو غلبته عليه باشتعال النار في الفحم، بجامع انتشار شئ لامع فى جسم أسود، تشبيها مركبا تمثيليا قابلاً لاعتبار التفريق في التشبيه، وهو أبدع أنواع المركب، فشبه الشعر الأسود بفحم، والشعر الأبيض بنار علي طريق التمثيلية المكنية، ورمز إلي الأمرين بفعل (اشتعل)"[2].

وفي إسناد الاشتعال إلي الرأس مجاز عقلي، لأن الاشتعال من صفات النار المشبه بها الشيب، فكان الظاهر إسناده إلي الشيب، فلما جئ باسم الشيب تميزاً لنسبة الاشتعال حصل بذلك خصوصية الجاز وغرابته[3]. وقد أفاد التمييز (شيبا) المحول عن الفاعل المبالغة في إفادة شمول الشيب لجميع شعر الرأس، إذ جعل الرأس نفسها شابت، والشائب إنما هو ما فيها من الشعر.

يقول ابن عاشور: "ولما في هذه الجملة (واشتعل الرأس شيبا) من الخصوصيات من مبني المعاني والبيان كان لها أعظم وقع عند أهل البلاغة"[4]، فصاحب فتح البيان يقول: "وهذه

---

(١) غرائب القرآن: حـ١٦ ص٣٦.

(٢) التحرير والتنوير: حـ١٦ ص٦٤.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: حـ١٦ ص٦٤.

(٤) التحرير والتنوير: حـ١٦ ص٦٤.

الاستعارة من أبدع الاستعارات وأحسنها"[1]، ويقول الزمخشري بعد إبراز ما في القول الكريم من المزايا البلاغية: "فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة"[2].

والإمام عبد القاهر يبين لنا أن فصاحة القول الكريم لا يكمن في اللفظة المستعارة فقط، وإنما في النظم الذي نظمت في فيقول: "وجملة الأمر أنا لا نوجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكنا نوجبها لها موصولة بغيرها ومعلقاً معناها بمعني ما يليها، فإذا قلنا في لفظة (اشتعل) من قوله -تعالي-: (واشتعل الرأس شيباً): أنها في أعلى رتبة من الفصاحة، لم توجب تلك الفصاحة لها وحدها، ولكن موصولاً بها (الرأس) معرفاً بالألف واللام، ومقروناً إليهما (الشيب) منكراً منصوباً"[3].

ويفصل الشيخ عبد القاهر هذا القول تحت باب (في النظم يتحد في الوضع ويدق فيه الصنع) فيقول: "ومن دقيق ذلك وخفية أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله -تعالي-: (واشتعل الرأس شيباً) لم يزيدوا فيه علي ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها، ولم يروا للمزية موجباً سواها، هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم، وليس الأمر علي ذلك، ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزية الجليلة، وهذه الروعة التى تدخل على النفوس عند هذا الكلام، لمجرد الاستعارة، ولكن لأن سلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلي الشئ، وهو لما هو من سببه، فيرفع به ما يسند إليه، ويؤتي بالذي الفعل له في المعني منصوباً بعده مبيناً أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلي ذلك الأول إنما كان من أجل هذا الثاني، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة، كقولهم: طاب زيد نفساً، وقر عمرو عيناً، وتصبب عرقا، وكرم أصلاً، وحسن وجهاً، وأشباه ذلك مما تجد الفعل فيه منقولاً عن الشئ إلي ما ذلك الشئ من سببه.

---

(1) فتح البيان: حـ٦ ص٥.

(2) الكشاف: حـ٣ ص٤.

(3) دلائل الإعجاز: ص٤٠٢، ٤٠٣.

وذلك أنا نعلم أن (اشتعل) للشيب في المعنى، وإن كان هو للرأس في اللفظ، كما أن (طاب) للنفس، و(قر) للعين، و(تصيب) للعرق، وإن أسند إلى ما أسند إليه، يبين أن الشرف كان؛ لأن سلك فيه هذا المسلك، وتوخي به هذا المذهب، أن تدع هذا الطريق فيه، وتأخذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صريحاً فتقول: (اشتعل شيب الرأس) أو(الشيب في الرأس) ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة؟ وهل تري الروعة التى كنت تراها.

فإن قلت: فما السبب في أن كان (اشتعل) إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل؟ ولم بأن بالمزية من الوجه الآخر هذه البينونة؟، فإن السبب أنه يفيد، مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعني، الشمول، وأنه قد شاع فيه وأخذه من نواحيه، وأنه قد استغرقه وعم جملته، حتى لم يبق من السواد شئ، أو لم يبق منه إلا مالا يعتد به، وهذا مالا يكون إذا قيل: (استعل شيب الرأس، أو الشيب في الرأس)، بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة، ووزان ذلك أنك تقول: (اشتعل البيت ناراً) فيكون المعنى: أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول وأنها قد استولت عليه وأخذت في طرفيه ووسطه، وتقول: (اشتعلت النار في البيت) فلا يفيد ذلك، بل لا يقتضي أكثر من وقعها فيه، وإصابتها جانبا منه، فأما الشمول، وأن تكون قد استولت على البيت وابتزته فلا يعقل من اللفظ البتة"[1].

ويذكر عبد القاهر نظير هذه الآية في التنزيل، وهي قوله -عز وجل-: (وفجرنا الأرض عيونا) ويفرق بينها وبين قولنا: وفجرنا عيون الأرض أو العيون في الأرض، إلي أن يقول: "واعلم أن في الآية الأولي شيئا آخر من جنس النظم وهو تعريف (الرأس) بالألف واللام، وإفادة معني الإضافة من غير إضافة، وهو أحد ما أوجب المزية، ولو قيل: (واشتعل رأسى) فصرح بالإضافة لذهب بعض الحسن فاعرفه"[2].

---

(1) دلائل الإعجاز: ص١٠٠، ١٠١، وينظر: مفتاح العلوم، ص٢٨٦، الإيضاح حـ٢ ص١٢٦.

(2) دلائل الإعجاز: ص١٠٢.

وقبل أن نترك هذه الجملة من دعاء زكريا -عليه السلام-: (رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا) لابد من ذكر ما قاله السكاكي في بلاغة هذا الدعاء وخصوصية نظمه وروعة سبكه حيث قال: "لا شبهة أن أصل معنى الكلام ومرتبته الأولى: يا ربي قد شخت، فإن الشيخوخة مشتملة علي ضعف البدن وشيب الرأس، والمتعرض لهما، ثم تركت هذه المرتبة لتوخي مزيد التقرير إلي تفصيلها في: ضعف بدني وشاب رأسي، ثم تركت هذه المرتبة الثانية لاشتمالها علي التصريح إلى ثالثة أبلغ وهي: الكناية في: وهنت عظام بدني، لما ستعرف أن الكناية أبلغ من التصريح، ثم لقصد مرتبة رابعة، أبلغ في التقرير بنيت الكناية على المبتدأ، فحصل: أنا وهنت عظام بدني، ثم لقصد خامسة أبلغ، أدخلت إن على المبتدأ، فحصل: إني وهنت العظام من بدني...، ثم لطلب مزيد اختصاص العظام به، قصدت مرتبة سابعة وهي ترك توسيط البدن، فحصل: إني وهنت العظام مني، ثم لطلب شمول الوهن العظام فرداً فرداً قصدت مرتبة ثامنة، وهي: ترك الجمع العظم إلى الإفراد؛ لصحة حصول وهن المجموع بالبعض دون كل فرد فرد[1]، فحصل ما ترى، وهو الذي في الآية: (إني وهن العظم مني).

وهكذا تركت الحقيقة في: شاب رأسي إلي أبلغ، وهي الاستعارة فسيأتيك أن الاستعارة أبلغ من الحقيقة، فحصل: اشتعل شيب رأسي، ثم تركت إلى أبلغ وهي: اشتعل رأسي شيباً، وكونها أبلغ من جهات. إحداها: إسناد الاشتعال إلي الرأس؛ لإفادة شمول الاشتعال الرأس، إذ وزان: اشتعل شيب رأسي، واشتعل رأسي شيباً، وزان: اشتعل النار في بيتي، واشتعل بيتي ناراً، والفرق نير، وثانيها: الإجمال والتفصيل في طريق التمييز، وثالثها: تنكير (شيبا) لإفادة المبالغة، ثم ترك: اشتعل رأسي شيباً، لتوخي مزيد التقرير إلي: اشتعل الرأس مني شيباً، على نحو: (وهن العظم مني)، ثم ترك لفظ: مني لقرينة عطف، واشتعل الرأس على وهن العظم مني، لمزية مزيد التقرير،

---

(1) ينظر: اعتراض الخطيب على السكاكي فيما جعله سببا للعدول عن لفظ (العظام) إلي لفظ (العظم) ص١٢ من هذا البحث.

وهي إيهام حوالة تأدية مفهومة على العقل دون اللفظ، واعلم أن الذي فتق أكمام هذه الجهات عن أزاهير القبول في القلوب هو أن مقدمة هاتين الجملتين وهي: (رب) اختصرت ذلك الاختصار بأن حذفت كلمة النداء وهي (يا) وحذفت كلمة المضاف إليه وهي: (ياء المتكلم): واقتصر من مجموع الكلمات على كلمة واحدة فحسب فهي المنادي، والمقدمة للكلام كما لا يخفي على من له قدم صدق في نهج البلاغة، نازلة منزلة الأساس للبناء، فكما أن البناء الحاذق لا يرمي الأساس إلا بقدر ما يقدر من البناء عليه، كذلك البليغ يصنع بمبدأ كلامه، فمتى رأيته اختصر المبدأ فقد آذنك باختصار ما يورد"[1].

وجملة (ولم أكن بدعائك رب شقيا) معترضة تفيد الحث على استمرار جميل صنع الله معه، والتوسل إليه بما سلف له معه من الاستجابة، والتنبيه على أن المطلوب —وإن لم يكن- معتاداً فإجابته- سبحانه- لدعائه معتادة، وقد عودة الإجابة، ومن حق الكريم ألا يُخيّب من عوده الإجابة، يقول القرطبي: "وهذه وسيلة حسنة أن يتشفع إليه بنعمة، ويستدر فضله بفضله"[2].

ويقول الرازي: "ووجه التوسل بهذا القول الكريم من وجهين، أحدهما: ما روى أن محتاجاً سأل واحداً من الأكابر وقال: أنا الذي أحسنت إلي وقت كذا، فقال: مرحبا بمن توسل بنا إلينا ثم قضى حاجته، وذلك أنه إذا قبله أولاً فلو أنه رده ثانياً لكان الرد محبطاً للإنعام الأول، والمنعم لا يسعى في إحباط إنعامه. والثاني: وهو أن مخالفة العادة شاقة على النفس، فإذا تعود الإنسان إجابة الدعاء فلو صار مردوداً بعد ذلك لكان في غاية المشقة، ولأن الجفاء ممن يتوقع منه الإنعام يكون أشق، فقال زكريا - عليه السلام-: إنك ما رددتني في أول الأمر، مع أني ما تعودت لطفك، وكنت قوى البدن قوى القلب، فلو رددتني الآن بعد ما عودتني القبول مع نهاية ضعفي لكان ذلك

---

(1) مفتاح العلوم: ص٢٨٥-٢٨٧.

(2) الجامع لأحكام القرآن: حـ١١ ص٨٠.

بالغاً إلي الغاية القصوى في ألم القلب، وأعلم أن العرب تقول: سعد فلان بحاجته إذا ظفر بها، وشقي بها إذا خاب ولم ينلها"[1].

ولفظة (رب) منادي محذوف منها أداة البعد، وفي هذا ما فيه من الدلالة على غاية الدنو، ومنتهى قرب الداعي من ربه –عز وجل– مع ما في التعرض لوصف الربوبية من إنباء عن إفاضة ما فيه صلاح المربوب، "فكلمة (رب) هي ترنيمة كل لسان، وأنشودة كل مؤمن، ومفتاح كل خير، ومغلاق كل شر"[2]، وهي عنوان الإنعام والتكريم.

وعطف قوله –تعالي-: (وإني خفت الموالي من ورائى) على جملة: (واشتعل الرأس شيبا) للتوسط بين الكمالين، والموالي: جمع مولى، وهم: ورثة الرجل، وبنو عمه، وعصبته[3]. وخوفه –عليه السلام– إنما كان من الموالي أن يغيروا في الدين من بعده، فطلب وليا يقوم بالدين بعد موته[4].

وقال (خفت) بلفظ الماضي؛ لأنه قصد به الإخبار عن تقادم الخوف ثم استغني بدلالة الحال، وإظهار الحاجة، عن الإخبار بوجود الخوف في الحال[5]، يقول الرازي: "فهو وإن خرج على لفظ الماضي لكنه يفيد أنه في المستقبل أيضاً، كذلك يقول الرجل: قد خفت أن يكون كذا، وخشيت أن يكون كذا، أي: أنا خائف. لا يريد أنه قد زال عنه الخوف"[6].

---

(1) التفسير الكبير: جـ٢١، ص١٨٣، وينظر: روح المعاني: حـ١٦ ص٦٠، فتح البيان حـ٨ ص١٣٥، التحرير والتنوير: حـ١٦ ص٦٦.

(2) دراسات جديدة في إعجاز القرآن: ص٢٧٦.

(3) لسان العرب: مادة (ولي).

(4) ينظر: فتح البيان: حـ٨ ص١٣٦، أضواء البيان: حـ٤ ص٢١١.

(5) ينظر: التفسير الكبير: حـ٢١ ص١٨٤، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: حـ١٦ ص٣٧

(6) التفسير الكبير: حـ٢١ ص١٨٤.

والتأكيد واضح في دعاء زكريا -عليه السلام-: (وإني خفت الموالى من ورائي)، والتأكيد هنا منظور فيه إلي تحقق المعني عند زكريا -عليه السلام- فخوفه من الموالي أن يبدلوا في دين الله أمر محقق، وهذا الخبر من البث والحزن والشكوى إلي الله -تعالي- والحسرة ورقة القلب، التي بمثلها تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة[1].

﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾

العَقْرُ والعُقْرُ: العُقْمُ، وهو استعقام الرحم، وهو ألا تحمل[2]، ومنه عقرت النخل: قطعته من أصله، وعقرت البعير: نحرته، وامرأته عاقر: لا تلد كأنها تعقر ماء الفحل[3]، والخبر واضح المعني: أن امرأته ثابت لها العقر، فلذلك حرم منها الولد، والخبر معطوف على سابقه، والغرض منه البث والحزن، والشكوى إلي الله -تعالي- استدراراً لرحمته واستعطافاً لكرمه وعطائه سبحانه وتعالي.

وأتي بالفعل ماضيا (كانت) للدلالة على أن العقر متمكن منها وثابت لها، وهو وإن كان بلفظ الماضي لكنه يفيد عقرها في الحال والاستقبال؛ "وذلك لأن العاقر لا تحول ولوداً في العادة، ففي الإخبار عنه بلفظ الماضي إعلام بتقادم العهد في ذلك، وغرض زكريا -عليه السلام- من هذا الكلام بيان استبعاد حصول الولد من امرأته فكان إيراده بلفظ الماضي أقوى"[4]، وإضافة إلى لفظ الماضي فإن صيغة الاسم (عاقراً) تشير أيضاً إلى أن عقر امرأة زكريا -عليه السلام- ثابت ودائم ومستمر.

---

(1) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ص٤١٤، ٤٢٤.

(2) لسان العرب: مادة (عقر).

(3) المفردات: مادة (عقر).

(4) ينظر: نظم الدرر: حـ١٢ ص١٦٩، التفسير الكبير: حـ٢١ ص١٨٤.

طلب الولد:

بعد هذه المقدمات التي استعطف بها زكريا -عليه السلام- ربه، واستدر بها رحمة خالقه جاء طلبه المراد في قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ والهبة: العطية الخالية عن الأعواض والأغراض، فإذا كثرت سمي صاحبها وهابا، والموهوب: الولد، والاستيهاب: سؤال الهبة[1].

والأمر في (فهب لي) أريد به الدعاء؛ لأن زكريا -عليه السلام- في مقام التضرع، ولفظ الهبة يشير إلى أن استجابة الله -تعالى- لزكريا -عليه السلام- إنما هي محض فضل منه عليه، ومنحة يمنحها إياه، وليس بالأمر المستحق، ولذا قال: (من لدنك)؛ "لأن حصول الولد في العرف والعادة له أسباب مخصوصة، وكانت مفقودة في حق زكريا -عليه السلام- فكأنه قال: أريد منك يا رب أن تعزل الأسباب في هذه الواقعة، وتخلق هذا الولد بمحض قدرتك من غير توسيط الأسباب"[2].

وحرفي الجر (لي من لدنك) متعلقان بالفعل (هب)، "وإنما قدم (لي) على (من لدنك) لأنه الأهم في غرض الداعي، وهو غرض خاص يقدم على الغرض العام"[3].

والولي في اللغة: الناصر. والولي: ولي اليتيم الذي يلي أمره ويقوم بكفايته. والمولي: الولي الذي يلي عليك أمرك. والولي: ضد العدو[4]، ويبدو من مادة (ولي) أنها تدور في نطاق النصرة، وولاية الأمر، وحسن التدبير، ومن هنا ينجلي لنا مغزى طلب زكريا -عليه السلام- حيث لم يطلب مجرد الولد أو الابن، فليس كل ولد يكون مهيئا لتحمل مسئولية الدين والولاية، بل يوجد من الأولاد

---

(1) لسان العرب: مادة (وهب).

(2) التفسير الكبير: حـ٢١ ص١٨٤.

(3) التحرير والتنوير: حـ١٦ ص٦٧.

(4) لسان العرب: مادة (ولي).

من يناصبون الآباء العداوة، قال -تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [1].

من هنا كانت الدقة في طلب زكريا -عليه السلام-، إنه يطلب من ربه وليا يتحمل أمانة الدين، ويكون عونا لأبيه في مواجهة إساءة بنى إسرائيل وانحرافهم، ويكون مهيئا لقيادتهم ووراثة العلم والقيام بأمر الدين، ولله در الراغب الأصفهاني حين قال: "وقوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ أي: أبناً يكون من أوليائك" [2].

ويقف أبو السعود عند تقديم الجارين: ﴿لِي مِن لَّدُنكَ﴾ على (وليا) فيقول: "وتأخيره عن الجارين؛ لإظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع، على ما فيه من التشويق إلى المؤخر، فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقي النفس مستشرفة له فعند وروده لها يتمكن عندها فضل تمكن، ولأن فيه نوع طول بما بعده من الوصف، فتأخيرهما عن الكل أو توسيطهما بين الموصوف والصفة مما لا يليق بجزالة النظم الكريم" [3] فسبحان من هذا كلامه!!.

والموصوف الذي ذكره أبو السعود هو (وليا)، وجملة (يرثنى) واقعة صفة له، وجملة (ويرث من آل يعقوب) معطوفة على (يرثني)، وجملة (واجعله رب رضيا) معطوفة على جملة ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾، واختلفت الآراء في المراد بالميراث، فقيل: هو المال، وقيل: العلم، وقيل: النبوة، يقول صاحب فتح البيان: "الأنبياء لا يورثون، وهم أجل من أن يعتنوا بأمور الدنيا، فليس المراد هنا وراثة المال، بل المراد وراثة العلم والنبوة والقيام بأمر الدين" [4].

---

(1) التغابن: ١٤.

(2) المفردات في غريب القرآن: مادة (ولي).

(3) إرشاد العقل السليم: حـ٣ ص٤١٥.

(4) فتح البيان: حـ٨ ص١٣٦، وينظر: أضواء البيان: حـ٤ ص٢١١، والجامع لأحكام القرآن حـ١١ ص٧٨.

ويعجبني ما ذكره الفخر الرازي حيث قال: "والأولى أن يحمل ذلك على كل ما فيه نفع وصلاح في الدين، وذلك يتناول النبوة والعلم والسيرة الحسنة، والمنصب النافع في الدين، والمال الصالح، فإن كل هذه الأمور مما يجوز توفر الدواعي على بقائها ليكون ذلك النفع دائماً مستمراً"[1]، ومعنى وراثة النبوة أنه يصلح لأن يوحي إليه، ولم يرد أن نفس النبوة تورث[2]، (ويرث من آل يعقوب) أي: "مما خصصتهم به من المنح، وفضلتهم به من النعم، من محاسن الأخلاق، ومعالي الشيم، وخص اسم (يعقوب) اقتداء به نفسه إذا قال ليوسف عليهما السلام-: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾[3]؛ ولأن إسرائيل صار علماً على الأسباط كلهم"[4].

والأمر في قوله: (واجعله رب رضيا) أريد به الدعاء، ولفظة (رب) منادي، "ونداء (رب) مستفيض في النظم القرآني استفاضة فائقة، وقد روعي في هذا النداء التخفيف اللفظي فحذف منه (يا) النداء في أوله و(يا) المضاف إليه في آخره، وكان الأصل أن يقال: يا ربي، وهذا التخفيف كما ترى تيسير على الداعين لكثرة ندائهم ربهم"[5]، وأيضاً في الحذف إشعار بقرب زكريا -عليه السلام- من ربه، والمنادي تشع منه معاني التربية والإحسان والتدبير والرعاية، وكل ذلك التماس لإجابة الدعاء ونيل المراد.

بشارة واستجابة:

قدم زكريا -عليه السلام- بين يدي دعائه بطلب الولد أموراً: منها إظهار الضعف، وتعويد الله -تعالى- له بالإجابة، وخوفه من سوء خلافة أقاربه، وكون امرأته عاقراً، وكون المطلوب بالدعاء سبباً للمنفعة في الدين، وقد جمع زكريا -عليه السلام- في دعائه بين الخضوع، وإظهار الضعف، وذكر

---

(1) التفسير الكبير: حـ٢١ ص١٨٥.

(2) ينظر: تفسير النسفي: حـ٣ ص٢٩.

(3) يوسف: ٦.

(4) نظم الدرر: حـ١٢ ص١٦٩.

(5) د/ المطعني: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: حـ٢ ص٣٦٨.

نعم الله عليه، فلما فعل ما فعل ذكرته رحمة الله -تعالى- ومَنّ الله -عز وجل- عليه بهذا النداء السار بما حوى من بشارة واستجابة.

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾

هذا النداء الكريم مقول قول محذوف دل عليه السياق عقب الدعاء إيجازاً، أي فاستجاب الله -تعالى- دعاء عبده زكريا -عليه السلام- فقال (يا زكريا)[1]، والنداء فيه لفت وتنبيه وتشويق لما بعده، واستعمال حرف النداء الموضوع للبعيد - مع أن الله -تعالى- قريب من كل عباده- فيه إشارة إلى أنه -عليه السلام- ينادي لأمر مهم وبشارة عظيمة، فليجمع قلبه وعقله لتلقيها.

والبشارة: تقال للخبر السار، وأبشرت الرجل وبشرته وبشرته: أخبرته بسار بسط بشرة وجهه، وذلك أن النفس إذا سرت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر[2]، والخبر السار الذي بشر الله به زكريا قوله: (بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى)، وإيثار البشارة على غيرها من الألفاظ؛ لما في هذا اللفظ السار من المسارعة بطمأنته أن الله استجاب دعاءه، والتعجيل بإدخال السرور على نفسه.

والغلام: هو الذي طر شاربه، أي: طلع وظهر[3]، وفي إطلاق لفظ الغلام على الطفل الذي سيولد لزكريا -عليه السلام- مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون، وفي ذلك إشارة إلى أن هذا المولود سيكون غلاماً مكتملاً قوياً في غاية القوة والنشاط والكمال في الذكورة[4]. ومن تمام البشارة أن الله -تعالى- سماه (يحيى)، ولم يكل تسميته إلى أبيه، وفي هذا منقبة عظيمة ليحيى -عليه السلام-، وتشريف له[5].

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: حـ١٦ ص٦٨.

(2) المفردات: مادة (بشر).

(3) مقاييس اللغة: مادة (غلم).

(4) ينظر: نظم الدرر: حـ٢ ص١٧٥، وينظر: تفسير النسفي: حـ٣ ص٢٩.

(5) ينظر: تفسير النسفي: حـ٣ ص٢٩.

وقد اكتست تلك البشارة ثوب التأكيد: (إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى) والداعي لهذا التأكيد هو غرابة البشارة، وحاجتها إلى التقرير والتحقيق، وغرابتها لكون الغلام من رجل كبير وامرأة عاقر لا تصلح للولادة.

وفسروا السمى في قوله -تعالى- (لم نجعل له من قبل سميا) بالموافق في الاسم، أي: لم نجعل من يوافقه في هذا الاسم، من قبل وجوده[1]، ويقول صاحب أضواء البيان: "لم نجعل من قبله أحداً يتسمي باسمه فهو أول من كان اسمه يحيى"[2]، وهذه منة من الله -تعالى- وإكرام لزكريا -عليه السلام- إذ جعل اسم ابنه مبتكراً، وللأسماء المبتكرة مزية قوة تعريف المسمي لقلة اقتداء الناس به من بعده حين يسمون أبناءهم ذلك الاسم تيمنا واستجادة[3].

وقيل: إن السمي بمعني: الشبيه والنظير، أي: لم نجعل له شبيها، وهذا أظهر في الثناء علي يحيى -عليه السلام- والامتنان على أبيه، والمعني: أنه لم يأت قبل يحيى من الأنبياء من اجتمع له ما اجتمع ليحيى، فإنه أعطي النبوة وهو صبي، قال -تعالى-: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[4]، وجعل حصوراً؛ ليكون غير مشقوق عليه في عصمته عن الحرام، وولد لأبيه بعد الشيخوخة، ولأمه بعد العقر، وبعث مبشراً برسالة عيسى -عليه السلام-، وجعل اسمه العلم مبتكراً غير مسبوق به، وهذه مزيا وفضائل وهبت له ولأبيه -عليهما السلام-[5].

وأخر المفعول (سميا) عن الجارين (له من قبل)؛ لإظهار كمال الاعتناء، والاهتمام بكون التفرد في الاسم له على ذلك الوجه البديع، يقول البقاعي: "(لم نجعل له) فيما مضى، ولعله أتى

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: حـ١٦ ص٦٩.

(2) محمد الأمين الشنقيطي: حـ٤ ص٢١٤.

(3) ينظر: التحرير والتنوير: حـ١٦ ص٦٩.

(4) مريم: ١٢.

(5) ينظر: التفسير الكبير: حـ٢١ ص١٨٧، التحرير والتنوير: حـ١٦ ص٦٧، ٦٨.

بالجار الدال على التبعيض تخصيصاً لزمان بني إسرائيل قومه"[1]، وتقديم الجارين على المفعول (سيا) فضلاً عن الاهتمام بالمقدم فيه تشويق إلى المؤخر، لأن ما حقه أن يقدم إذا أخر تبقي النفس مستشرفة له، ومتشوقة إليه، فعندما يرد إليها يتمكن منها فضل تمكن.

تساؤل وتعجب:

بعد تلك البشارة العظيمة بيحيى -عليه السلام-، يأتي قوله -تعالى-: (قال رب أني يكون لي غلام، وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا) "وفي حذف (يا) النداء حيث قال (رب)، وكان الأصل أن يقول: يا رب، إيجاز بالحذف"[2]، وفي الحذف دلالة على قرب المنادي من المنادي، ووصف الربوبية هو عنوان الإكرام والإحسان، ومشعر بالرعاية وحسن التدبير.

و(أني) أداة استفهام بمعنى (كيف) فتكون استفهاماً عن الحال أو بمعنى (من أين)، وقد توقف المفسرون أمام الاستفهام الصادر من زكريا -عليه السلام- فالإمام الطبرى يقول: "قال زكريا لما بشره الله بيحيى: (رب أني يكون لى غلام)، ومن أى وجه يكون لي ذلك، وامرأتي عاقر لا تحبل، وقد ضعفت من الكبر عن مباضعة النساء، أبأن تقويني على ما ضعفت عنه من ذلك، وتجعل زوجتي ولوداً، فإنك القادر على ما تشاء؟ أم بأن أنكح زوجة غير زوجتي العاقر؟ يستثبت ربه الخبر عن الوجه الذي يكون من قبله الولد الذي بشره الله به، لا إنكاراً منه -صلى الله عليه وسلم- حقيقة كون ما وعده الله من الولد، وكيف يكون ذلك منه إنكاراً، لأن يرزقه الله الولد الذي بشر به وهو المبتدئ مسألة ربه ذلك بقوله: (فهب لي من لدنك وليا)[3].

ويقول أبو السعود: "وإنما قال -عليه الصلاة والسلام- مع سبق دعائه بذلك، وقوة يقينه بقدرة الله لاسيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في سورة آل عمران، استعظاماً لقدرة الله -

---

(1) نظم الدرر: حـ١٢ ص١٧٤.

(2) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: حـ٢ ص٢٦٨.

(3) جامع البيان: حـ١٦ ص٥٠، وينظر: معاني القرآن للنحاس، ط جامعة أم القري ١٩٨٨ حـ١، ص٣٩٥.

تعالي- وتعجبا منها، واعتداداً بنعمته -تعالي- عليه في ذلك بإظهار أنه من محض لطف الله -عز وعلا- وفضله، مع كونه في نفسه من الأمور المستحيلة عادة، لا استبعاداً له"[1].

ويقول صاحب فتح البيان: "وليس معنى هذا الاستفهام: الاستبعاد والإنكار بل التعجب والاستكشاف من قدرة الله، وبديع صنعه حيث يخرج ولداً من امرأة عاقر وشيخ كبير"[2]. وقد ذكر معظم المفسرين أن الاستفهام في قوله زكريا -عليه السلام-: (أني يكون لي غلام) لا يراد به الاستبعاد أو الإنكار، وإنما يراد به الاستكشاف والتعجب[3]، غير أن الزمخشري ذكر أن المراد بالاستفهام: الاستبعاد[4].

ويذكر الدكتور عبد العظيم المطعني معنى الاستفهام في قول زكريا -عليه السلام- ويعترض على ما وجهه به الزمخشري من معنى الاستبعاد فيقول: "معني هذا الاستفهام: السؤال عن كينونة الغلام له مع انتفاء أسباب الإنجاب مع اليقين التام بصدق البشارة بالغلام، فهو استفهام حقيقي مشوب بالتعجب من طلاقة قدرة الله، هذه خلاصة ما يقال في هذا الاستفهام، وحمله على الاستبعاد كما ذهب الزمخشرى لا يليق؛ لأن الأنبياء لا يرتابون في كلام الله، وقد رفض أبو السعود هذا الرأي، أما الألوسن وابن عاشور فهو عندهما للتعجب من كمال قدرة الله"[5].

ومعنى الاستبعاد الذي رفضه الدكتور المطعنى، واعترض على الزمخشري بسببه كان في سياق آية آل عمران، لكننا نجد الدكتور قد رجع عن هذا الرأي في آية مريم وقال بالنص: "عقر

---

(1) إرشاد العقل السليم: حـ٣ ص٤١٧.

(2) فتح البيان حـ٦ ص٨

(3) ينظر: التفسير الكبير: حـ٢١ ص١٨٩، نظم الدرر حـ١٢ ص١٧٥، تفسير النسفي حـ٣ ص٣٠، التحرير والتنوير حـ١٦ ص٧٠.

(4) ينظر: الكشاف حـ١ ص

(5) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: حـ١ ص١٦٢.

امرأته وكبر سنة هما محط الاستبعاد الذي دلت عليه (أني)"[1]، فكيف يرفض معنى الاستبعاد في آل عمران، ويقر بهذا المعني في مريم؟!!، ونجده يقول في سر تقديم الجار (لي) على الفاعل (غلام): "وتقديم الجار والمجرور (لي) على (غلام) من بواعث الاستبعاد؛ لأن المستبعد: أن يكون له غلام لا لغيره ممن هم صالحون للإنجاب"[2].

لا أجد مبرراً لما فعله الدكتور المطعني، فالآية: (قال رب آني يكون لي غلام) وإن كانت وردت في آل عمران ومريم، لكن الاستفهام فيها واحد، وبأداة واحدة، والمستفهم واحد، والمستفهم عنه واحد، وسبب الاستفهام واحد. فكيف يكون في آل عمران حقيقياً مشوبا بالتعجب، ويكون في مريم استبعاداً؟!!.

والغلام –كما قال الرازى-: الإنسان الذكر في ابتداء شهوته للجماع[3]، وفي إطلاق لفظ الغلام علي الطفل الذي سيولد مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون، وفي هذا إشارة إلي أن هذا المولود سيعيش وينمو، ويكون غلاماً مكتملاً قوياً، وتقديم الجار والمجرور على الفاعل (لي غلام) يفيد التخصيص؛ لأن المتعجب منه: أن يكون له غلام لا لغيره ممن هم صالحون للإنجاب في زمانه.

وجملة (وكانت امرأتي عاقراً) حال من ياء المتكلم في (لي)، والعقر: العقم، وهو كون المرأة لا تلد، وأتي بالفعل ماضيا (كانت) للدلالة علي أن العقر متمكن منها وثابت لها، وهو وإن كان بلفظ الماضي، لكنه يفيد عقرها في الحال والاستقبال[4]، وصيغة الاسم (عاقراً) تشير أيضاً إلي أن عقر امرأته ثابت ومستمر.

---

(1) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: حـ٢ ص٢٦٩.

(2) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: حـ٢ ص٢٧٠.

(3) التفسير الكبير: حـ٢١ ص١٨٨.

(4) ينظر: التحرير والتنوير: حـ١٦ ص٦٧.

وجملة: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ معطوفة علي ما قبلها. والكبر: في السن، وكبر الرجل فهو كبير: طعن في السن[1]. وعتا الشيخ عتيا وعتيا: أسن وكبر وولي[2]، والمعني: أن زكريا -عليه السلام- أحب أن يعلم من أي جهة يكون له ولد، ومثل امرأته لا تلد، ومثله لا يولد له؟، وقد تقدم إنه لم ينكر ولم يستبعد على قدرة الله شيئاً، ولكن قوة المفاجأة (أزهلته فاستفهم متعجباً عن كينونة الغلام مع قيام موانع الإنجاب.

وجاء قوله: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ متضمنا جواباً لهذا الاستفهام ومزيلاً سبب التعجب، ومشيراً إلي كمال قدرة الله -تعالي- وعظيم سلطانه، ومطلق إرادته ومشيئته[3]، والقول الكريم فيه صورة تشبيهية، المشبه به اسم الإشارة (ذلك)، والمشبه هو فعل الله، والتقدير: مثل ذلك الفعل، وهو خلق الله ولداً من عاقر وعجوز في طلاقة القدرة هين وسهل يفعل الله كل ما يشاء والتعبير باسم الإشارة (ذلك) للإشعار بفخامة المشار إليه من كونه إحدى المعجزات[4].

"وانظر إلي لطافة المعنى في إضافة (رب) إلي ضمير المخاطب فإن في هذه الإضافة تذكيراً للمخاطب بجلائل النعم التى تفيض من الربوبية على المربوب، والرعاية التى تحيط به من كل جانب وحسن التدبير"[5]، وفي تقديم الجار والمجرور (علي هين) إفادة للتخصيص، والمعني: خلق

---

(1) لسان العرب: مادة (كبر).

(2) لسان العرب: مادة (عتا).

(3) ينظر: د/سيوني فيود: أساليب الاستفهام في القرآن الكريم، دكتوراه مخطوطة في كلية اللغة العربية بالقاهرة تحت رقم ٢٠٣٣، ص٢٩٩.

(4) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: حـ١ ص١٦٣.

(5) دراسات جديدة في إعجاز القرآن: ص٢٩٤.

يحيي -عليه السلام- متكما علي هذه الحالة (عليّ) خاصة (هين) أي: سهل لا فرق عندي بينه وبين غيره[1].

"وجملة (وقد خلفتك من قبل) في موضع الحال من ضمير الغيبة الذي في قوله: (هو علي هين)، أي: إيجاد الغلام لك هين علي في حال كوني قد خلقتك من قبل هذا الغلام ولم تكن موجوداً، أي: في حال كونه مماثلاً لخلقي إياك، فكما لا عجب من خلق الولد في الأحوال المألوفة، كذلك لا عجب من خلق الولد في الأحوال النادرة إذ هما إيجاد بعد عدم، ومعني (ولم تك شيئا): لم تكن موجوداً[2].

وتوقف البقاعي عند حذف النون من (تك) فقال: "ولما كان -عليه السلام- شديد التشوق لما يلقي عليه من المعنى في هذه البشرى أوجز له حتى بحذف النون من (ولم تلك شيئاً)[3]، والمعني: كما خلقك الله -تعالي- بعد العدم ولم تك شيئا موجوداً فهو القادر على خلق يحيى وإيجاده[4].

طلب الآية على حصول البشارة:

أراد زكريا -عليه السلام- نصب علامة على وقوع الحمل بالغلام؛ لأن البشارة لم تعين زمناً، وقد يتأخر الموعود به لحكمة، فأراد زكريا -عليه السلام- أن يعلم وقت الموعود به فقال كما حكي القرآن الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾.

و(رب) منادي محذوف الأداء دلالة على منتهى قرب زكريا -عليه السلام- من ربه، مع ما في لفظ الربوبية من الصلاح للمربوب، ولفظ (اجعل) أمر أريد به الدعاء، و(آية) بمعنى علامة

---

(1) ينظر: نظم الدرر: حـ١٢ ص١٧٦.

(2) التحرير والتنوير: حـ١٦ ص٧٢.

(3) نظم الدرر: حـ١٢ ص١٧٦.

(4) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: حـ١١ ص٨٤.

ظاهرة، وتنكيرها للتنويع أو العموم، أي: اجعل لي أى أية من أي نوع، وقدم الجار والمجرور (لي) علي المفعول (آية) اهتماماً بالمقدم؛ وتشويقاً للمؤخر، وحذف متعلق (آية) والتقدير: آية على حصول الحمل، وهذا الحذف يبرز مدى شوق زكريا - عليه السلام - لحصول البشارة، وفيه تعريض بطلب المبادرة بالغلام.

وفصلت جملة: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ عما قبلها للاستئناف البياني، وهذا الاستئناف ينطوي علي مطلوب زكريا - عليه السلام - أي: جعلنا لك آية وهي ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾، يقول الرازي: "اتفقوا على أن تلك الآية هي تعذر الكلام عليه، فإن مجرد السكوت مع القدرة على الكلام لا يكون معجزة"[1]، وجاء في البحر المحيط: "روي عن أبي زيد أنه لما حملت زوجته بيحيى أصبح لا يستطيع أن يكلم أحداً، وهو مع ذلك يقرأ التوراة ويذكر الله، فإذا أراد مناداة أحد لم يطقه"[2].

واختلفت الآراء في كيفية تعذر النطق عند زكريا - عليه السلام - فرأي يقول: إنه اعتقل لسانه أصلاً، ورأي يقول: إنه امتنع عليه الكلام مع القوم على وجه المخاطبة مع أنه كان متمكنا من ذكر الله ومن قراءة التوراة، ويشير الرازي إلي الرأي الثاني قائلاً: "وهذا القول عندي أصح لأن اعتقال اللسان مطلقا قد يكون لمرض...، أما لو اعتقل لسانه عن الكلام مع القوم مع اقتداره على التكلم بذكر الله -تعالي- وقراءة التوراة علم بالضرورة أن ذلك الاعتقال ليس لعلة ومرض بل هو محض فعل الله، فيتحقق كونه آية ومعجزة، ومما يقوى ذلك قوله -تعالي-: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ خص ذلك بالتكلم مع الناس، وهذا يدل بطريق المفهوم أنه كان قادراً على التكلم مع غير الناس"[3].

---

(1) التفسير الكبير: حـ٢١ ص١٩١.

(2) البحر المحيط: حـ٧ ص٢٤٤.

(3) التفسير الكبير: حـ٢١ ص١٩١.

وحدد الله -سبحانه- مدة انحباس لسان زكريا -عليه السلام- بثلاث ليال بأيامها كما دل عليه التعبير بالأيام في آل عمران، يقول ابن عاشور: "وجعلت مدة انتفاء تكليمه الناس هنا ثلاث ليال، وجعلت في سورة آل عمران ثلاثة أيام، فعلم أن المراد هنا ليال بأيامها، وأن المراد في آل عمران أيام بلياليها"(1).

و(سويا) إما أن تكون صفة لليالي الثلاث، أي ثلاث ليال كاملات مستويات، وإما أن تكون حالاً من ضمير المخاطب زكريا -عليه السلام- وهذا هو الراجح عندي، والمعنى: آتيك ألا تكلم الناس ثلاث ليال حال كونك سويا من غير خرس ولا مرض ولا حبسة عن مطلق الكلام بل تناجي ربك فيها بتسبيحه وتحميده وتلاوة كتابه، وعلى هذا فذكر الحال (سويا) أفاد تأكيد الاطمئنان على انتفاء العاهة(2).

والفاء في قوله: (فخرج على قومه من المحراب فأوحي إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) تفيد الترتيب والتعقيب، وفي هذا إيحاء بمدى السرعة التى تمت بها البشارة وحصول الآية على حمل زوجته بيحيى -عليه السلام-، وخروجه على قومه عقب إعلام الله -تعالى- له بهذا، "والفاء تجعل أول ما دخلت عليه موصولاً بآخر ما عطفت عليه، وكأنها عروة يمسك بها الحدث بالحدث، والفعل بالفعل، والقول بالقول، والحركة بالحركة، وتنتج لك من كل هذه الأحداث والأقوال صورة واحدة وفعلاً واحداً قد كونته كل هذه المكونات"(3).

وضمن (خرج) معنى (طلع) فعدى بـ(علي) وفي هذا إشارة إلي أن "المحراب أرفع المواضع وأشرف المجالس، وكانوا يتخذون المحاريب فيما ارتفع من الأرض"(4)، والمحراب: القبلة، ومحراب

(1) التحرير والتنوير: حـ16 ص73.

(2) ينظر: التفسير الكبير حـ21 ص191، نظم الدرر: حـ12 ص177، التحرير والتنوير حـ16 ص74.

(3) شرح أحاديث من صحيح البخاري: ص54.

(4) الجامع لأحكام القرآن حـ11 ص84.

المسجد: صدره وأشرف موضع فيه، قال الزجاج: المحراب أرفع بيت في الدار، وأرفع مكان في المسجد، والمحراب كالغرفة[1].

قال الفخر الرازي: "قيل: كان له موضع ينفرد فيه بالصلاة والعبادة ثم ينتقل إلى قومه فعند ذلك أوحي إليهم، وقيل: كان موضعاً يصلي فيه هو وغيره إلا أنهم كانوا لا يدخلون للصلاة إلا بإذنه، وإنهم اجتمعوا ينتظرون خروجه للإذن فخرج إليهم وهو لا يتكلم فأوحي إليهم"[2].

وأصل الوحي: الإشارة السريعة؛ ولتضمن السرعة قيل: أمر وحي، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة وقد حمل على ذلك قوله -تعالى- عن زكريا (فخرج على قومه من المحراب فأوحي إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) فقد قيل: رمز، وقيل: اعتبار، وقيل: كتب[3]، "واعلم أن الأشبه بالآية هو الإشارة لقوله -تعالى- في سورة آل عمران: (ثلاثة أيام إلا رمزاً) والرمز لا يكون كناية للكلام"[4].

و(أن) تفسيرية، وجملة (سبحو بكرة وعشيا) تفسير لـ (أوحي)، لأن (أوحي) فيه معنى القول دون حروفه[5]، وإنما أمرهم بالتسبيح لئلا يحسبوا أن زكريا ما لم يكلمهم قد نذر صمتا فيقتدوا به فيصمتوا، وكان الصمت من صنوف العبادة في الأمم السالفة، فأومأ إليهم أن يشرعوا فيما اعتادوه من التسبيح، أو أراد أن يسبحوا تسبيح شكر[6].

وحذف مفعول (سبحوا) للعلم به إيجازاً، والتقدير: سبحوا الله، والتسبيح من جملة الذكر، وإنما خص من الذكر التسبيح؛ "لأن العادة جارية أن كل من رأى أمراً عجب منه، أو رأى فيه بديع

---

(1) لسان العرب: مادة حرب.

(2) التفسير الكبير: حـ٢١ ص١٩١.

(3) المفردات: مادة (وحي).

(4) التفسير الكبير: حـ٢١ ص١٩١.

(5) التحرير والتنوير: حـ١٦ ص٧٤

(6) التحرير والتنوير: حـ١٦ ص٧٤، وينظر: التفسير الكبير حـ٢١ ص١٩١.

صنعة، أو غريب حكمة يقول: سبحان الله سبحان الخالق، فلما رأى حصول الولد من شيخ وعاقر عجب من ذلك فسبح وأمر بالتسبيح"[1].

والبكرة: هي أول النهار، وهي من طلوع الفجر إلي الضحى[2]، والعشي: آخر النهار، من صلاة المغرب إلى العتمة[3]، والطباق بين (بكرة وعشيا) أضفى على النظم جمالاً وبهاء، ودل على أن زكريا -عليه السلام- استقبل نعمة الله -تعالي- استقبال الشاكرين المسبحين طرفى النهار بكرة وعشيا، وفى إشراك قومه فى التسبيح إشارة إلي أن إنعام الله -تعالي- بمقدم يحيى -عليه السلام- إنما هو بشارة لزكريا -عليه السلام-، ولقومه أيضا، وأن يحيى -عليه السلام- إنما هو نعمة من الله -تعالي- على بني إسرئيل تستلزم شكر الجميع وتسبيحهم.

وهكذا افتتحت هذه الآيات التى تتحدث عن زكريا -عليه السلام- في سورة مريم بالرحمة، واختتمت بالتسبيح بكرة وعشيا، وما بين الافتتاح والختام نجد الدعاء الخاشع الضارع من زكريا -عليه السلام- لربه الكريم أن يهبه غلاماً يرث العلم وينشر الدين، فيستجاب الدعاء، وتأتى البشرى بيحيى -عليه السلام-، ويتبع ذلك بالشكر والتسبيح.

وبعد الشكر والتسبيح تأتي آيات تتعلق بيحيى -عليه السلام- وهي قوله -تعالي-: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾[4].

وهذه الآيات فى مجملها تدل على مدى استجابة الله -تعالي- لدعاء عبده زكريا -عليه السلام- حيث رزقه غلاماً ولياً حكيماً زكيا برأ تقياً هو يحيى -عليه السلام-، ولست بصدد الوقوف أمام آيات يحيى -عليه السلام-، وإنما البحث معنى بحديث القرآن الكريم عند زكريا -عليه السلام- وقد ورد بعد سورة مريم -بحسب الترتيب النزولي للسور- في سورة الأنبياء، فإلي هناك.

---

(1) البحر المحيط: حـ٧ ص٢٤٥.

(2) المفردات: مادة (بكر).

(3) لسان العرب: مادة (عشا).

(4) مريم: ١٢-١٥.

المبحث الثاني

زكريا -عليه السلام- في سياق سورة الأنبياء

قال الله -تعالى-: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [1].

هاتان الآيتان جاءتا في إطار ما ورد في سورة الأنبياء من أخبار الأنبياء -عليهم السلام-، وقد ذكر في هذه السورة ستة عشر نبيا ومريم، وهذا وجه تسميتها بسورة الأنبياء، والآيتان تقصان نبأ زكريا -عليه السلام- وضراعته واستعطافه ربه أن يهبه ولداً، واستجابة الله -تعالى- له؛ لأنه كان من المسارعين في الخيرات، وممن يكثرون التوجه إلى الله -تعالى- في خشوع وضراعة.

وقد سُبق نبأ زكريا -عليه السلام- بنبأ يونس -عليه السلام- في هذه السورة، ووجه التناسق بين النبأين يذكره البقاعي قائلاً: "لما كان حاصل أمر يونس -عليه السلام- أنه خرج من بطن لم يعهد الخروج من مثله، عطف عليه قصة زكريا -عليه السلام- في هبته له ولداً من بطن لم يعهد الحمل من مثله في العقم واليأس" [2].

يبدأ نبأ زكريا -عليه السلام- في سورة الأنبياء بداية مشوقة فيها إثارة للانتباه، وإيقاظ للأسماع، قال -تعالى- ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾، فالبدء بالاسم (زكريا) فيه تشويق وتنبيه لما يأتي بعده من أحداث تخصه وتتعلق به، وهي من عجائب آيات الله -تعالى-، والنفس تشتاق إلى سماع الأمر العجيب حتى تمامه.

---

(1) الأنبياء: ٨٩-٩٠.

(2) نظم الدرر: حـ١٢ ص٤٦٨.

وقد توجه زكريا -عليه السلام- إلي ربه -تعالي- لما مسه الضر بتفرده، وأحب من يؤنسه ويقويه علي أمر دينه ودنياه ويكون قائما مقامه بعد موته فدعا الله -تعالي- دعاء مخلص عارف بأنه قادر علي ذلك، وإن انتهت الحال به وبزوجه من كبر وعقر إلى اليأس من ذلك بحكم العادة[1].

ونداء زكريا -عليه السلام- إنما كان لربه الحبيب القريب، فالمنادي راج، و(رب) هو عنوان الإنعام والتفضل، ولذلك تعلق به النداء، وقوله: (رب) منادى حذفت منه أداة النداء إشارة إلي قرب المنادي من المنادي، فزكريا -عليه السلام- في مقام الخشوع والاستعطاف مستدراً رحمة ربه، وحذف أداة البعد في هذا المقام أدل على القرب وأدعي للإجابة.

والنهي في قوله -تعالى-: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أريد به الدعاء؛ لأن طلب الكف عن الفعل واقعاً من الأدنى رتبة علي سبيل التضرع والاسترحام، والنهي المراد به الدعاء هنا فيه حث علي الإسراع بإجابة الدعاء، والمعني: لا تذرني منفرداً من غير ولد يرثني ويرث من آل يعقوب.

وجملة: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ جملة حالية أريد بها الثناء على الله -تعالي- لتمهيد الإجابة أي: "أنت الوارث الحق فأفض علي من صفتك العلية شيئاً، وقد شاع في الكتاب والسنة ذكر صفة من صفات الله -تعالي- عند سؤاله ما هو من جنسها، كما قال أيوب (وأنت أرحم الراحمين)، ودل ذكر ذلك على أنه سأل الولد لأجل أن يرثه كما في آية سورة مريم"[2].

يقول البقاعي: "ولما كان من الورثة من يحب من يحجبه من الإرث أو يشاركه فيه، ومنهم من لا يحب ذلك ويسعى في إهلاك من يحجبه أو ينقصه، ومنهم من يأخذ الإرث فيصرفه في المصارف القبيحة علي ما تدعو إليه شهوته وحاجته، ومنهم من يأخذه بعفة فينفذ وصايا الموروث، ويصل ذا قرابته وأهل وده، ويتصدق عنه، ويبادر إلى كل ما كان يحبه وينفعه، كل ذلك لغني نفسه، وكرم طبعه مع كونه مجبولاً على الحاجة والنقص، وكان الله هو الغني الحميد الحكيم المجيد، قال ملوحاً بمقصده في أسلوب الإلهاب والتهييج: (وأنت) أي: والحال أنك (خير الوارثين)؛ لأنك

---

(1) ينظر: التفسير الكبير: حـ٢٢ ص٢١٧.

(2) التحرير والتنوير: حـ١٧ ص١٣٥.

أغناهم عن الإرث، وأحسنهم تصرفاً، وكثيراً ما تمنح إرث بعض عبيدك عبيداً آخرين، فأنت الحقيق بأن تفعل في إرثي من العلم والحكمة ما أحبه فتهبني ولداً تمن عليه بذلك"[1].

والفاء في قوله -تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ تفيد أن الإجابة كانت عقب النداء مباشرة دون مهلة، والهبة: إحسان محض ليس في مقابلتها شيء يكون عوضاً للواهب، ولذا فإن لفظ الهبة في قوله -تعالى-: (ووهبنا له يحيى) وإسناده إلى نون العظمة يشير إلى أن استجابة الله -تعالى- لعبده زكريا -عليه السلام- كانت محض فضل منه عليه، ومنحة منحها إياه، وأن تلك الهبة لا يستطيعها إلا الله -تعالى- صاحب القدرة والعظمة؛ لأن زكريا -عليه السلام- "في حد من السن لا حراك به معه وزوجه في حال من العقم لا يرجي معه جبلها فكيف وقد جاوزت سن اليأس؟"[2].

وتقديم الجار والمجرور (له) على المفعول (يحيى) فيه إظهار لكمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع، على ما في التقديم من تشويق إلى المؤخر، و(يحيى) اسم سماه الله به قبل أن يولد، وفي تسميته بصيغة الدوام (يحيى) إشارة إلى أنه سيحيا ويكون سيداً ونبياً من الصالحين، وسيتحقق فيه دعاء زكريا -عليه السلام-.

والواو في قوله -تعالى-: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ عاطفة على الجملة التي سبقتها للتوسط بين الكمالين، وإصلاح الزوجة: جعلها صالحة للحمل بعد أن كانت عاقراً، وتقديم الجار والمجرور (له) على المفعول (زوجه) يفيد التخصيص، أي: أصلحنا له خاصة دون أهل ذلك الزمان، يقول البقاعي: "﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ﴾ خاصة من بين أهل ذلك الزمان (زوجه) أي: جعلناها صالحة لكل خير خالصة له، ولاسيما لما منا عليه به من هذه الهبة بعد أن كانت بعقمها وكبرها غير صالحة له"[3].

ومما يدعو إلى الوقوف أمام هذه الآية الشريفة ما نراه من تقديم قوله: (ووهبنا له يحيى) على قوله: (وأصلحنا له زوجه)، لأن إصلاح الزوج مقدم على هبة الولد، والواو العاطفة، وإن

---

(1) نظم الدرر: حـ١٢ ص٤٦٨،٤٦٩.

(2) نظم الدرر: حـ١٢ ص٤٦٩.

(3) نظم الدرر: حـ١٢ ص٤٦٩.

كانت تفيد مطلق الجمع دون ترتيب إلا أن تقديم الهبة على إصلاح الزوج فى نظم الآية يستدعي التأمل والنظر، وهذا يرجع بنا إلى حال زكريا -عليه السلام- إنه كان في ضراعته إلي الله -تعالي- يتمني أن يرزق بولد يرثه ويرث من آل يعقوب، فكان تقديم الهبة علي إصلاح الزوج من باب التعجيل بالبشارة، والمبادرة بالمسرة؛ لأن ذلك يضفي سروراً علي قلب زكريا -عليه السلام- ويملأه بهجة وفرحاً وسعادة، وهذا هو سر التقديم.

ثم يأتي بعد ذلك قوله -تعالي-: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ استئنافا بيانيا واقعا موقع التعليل لما سبقه، وضمير الجمع في (إنهم) إما عائد إلي جملة الأنبياء المذكورين في هذه السورة ومنهم زكريا -عليه السلام-، وحرف التأكيد يفيد معني التعليل والتسبب، فكأنه قال: استجبنا لهؤلاء الأنبياء ونجيناهم وكشفنا ما بهم من ضر وأدخلناهم في رحمتنا؛ لأنهم ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾.

وإما أن يكون الضمير في (إنهم) عائد علي زكريا وولده، وأهله "فبين أنه أتاهم ما طلبوه، وعضد بعضهم ببعض من حيث كانت طريقتهم أنهم يسارعون في الخيرات، والمسارعة في طاعة الله -تعالي- من أعظم ما يمدح المرء به؛ لأنه يدل علي حرص عظيم علي الطاعة"[1]، وفي هذا ترغيب في المسارعة إلي الخيرات والضراعة إلي الله -تعالي-، والخشوع له، لأن هذا هو سبب استدرار رحمة الله -تعالي- وعطائه وعونه، وفيه أيضاً "إشارة إلي أن العمل الصالح المؤسس علي التوحيد ضامن لإجابة الدعاء، وإن كان فيه خرق العادة"[2].

وفعل الكون (كانوا يسارعون) أفاد أن المسارعة في الخيرات كانت دأبهم، وأنهم كانوا مجبولين من بداية خلقتهم مهيئين لأن يسارعوا في الخيرات، والمسارعة: مستعارة للحرص والهمة والجد تحذف في فعل الخيرات، تشبيها للجد في فعل الخيرات بمسارعة السائر آخر في طريق إلي

(1) التفسير الكبير: حـ٢٢ ص٢١٨.

(2) نظم الدرر: حـ١٢ ص١٦٣.

مكان مقصود، وفي هذا مدح لأحوال هؤلاء الأنبياء، وتعجيب لأمرهم، إنهم كانوا حريصين على فعل الخيرات مداومين عليها، مبالغين في الإسراع إليها مبالغة من يسابق آخر[1].

والخيرات: جمع خير، والخير: ما يرغب فيه الكل. والخير: ضد الشر[2] وعطف على المسارعة في الخيرات قوله -تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ وهذا من عظيم فعالهم أنهم ضموا إلى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين، **الأمر الأول**: الفزع إلى الله -تعالى- ودعائه رغبة في ثوابه، ورهبة من عقابه، وقال: (ويدعوننا) بنون العظمة إشارة إلى أنهم كانوا مستحضرين لجلال الله -تعالى- وعظمته وكماله، والمضارعة في الفعل تشير إلى أن ضراعتهم وفزعهم إلى دعاء ربهم كان أمراً متجدداً لا ينقطع.

والرغب والرهب: مصدران من رغب ورهب. والرغب: الضراعة والمسألة[3]. والرهب: مخافة مع تحرز واضطراب[4]، وقد أضفي الطباق بين اللفظين علي الكلام جلالاً وبهاء وحسناً فقد جمع أولئك الأنبياء -عليهم السلام- في دعائهم بين الرغبة والرهبة، وهما عنوان الإخلاص ورأس العبودية، ففي دعائهم يستحضرون عظمة ربهم، ويكونون متلبسين بحال الطمع فيما عند الله -تعالى-، والخوف منه -جلت قدرته.

والأمر الثاني: الذي ضموه إلي المسارعة في الخيرات هو الخشوع، وقد أشير إليه في قوله -تعالى-: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ وفعل الكون يشير إلي أن خشوعهم كان جبلة وطبعاً[5]، والخشوع: الضراعة، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح. والضراعة أكثر ما تستعمل فيما

---

(1) ينظر: نظم الدرر حـ١٢ ص٤٧٠، التحرير والتنوير: حـ١٧ ص١٣٦.

(2) المفردات: مادة (خير).

(3) لسان العرب: مادة (رغب).

(4) المفردات: مادة (رهب).

(5) نظم الدرر: حـ١٢ ص٢٧٠.

يوجد في القلب؛ ولذلك قيل فيما روي: إذا ضرع القلب خشعت الجوارح[1]. والخشوع: الخشية والخضوع[2].

والمعني: كانوا لنا خاضعين خضوعاً عظيماً يحملهم علي الخشية والتواضع والخوف. وفي تقديم الجار والمجرور (لنا) على الخبر (خاشعين) إفادة للقصر، أي: كان خشوعهم لنا خاصة، فلم يخافوا أحداً غير الله، ولم يخشعوا إلا لعظمته -تعالي-، ولم يتضرعوا إلا لرحمته -جل شأنه-.

ولننظر تارة أخري إلي هذه الصفات التي كانت سببا في استجابة الله -تعالي- لأنبيائه، وإفاضة الرحمة عليهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾. فللمسارعة في الخيرات جاءت بصيغة المضارعة (يسارعون)، والدعاء جاء أيضاً بصيغة المضارعة (يدعوننا)، وخولف هذا النظم في الخشوع فجاء بصيغة الاسم (خاشعين).

وواضح أن الفعل يدل على التجدد والحدوث، وصيغة الاسم تدل على الثبوت والدوام، فالمسارعة في فعل الخيرات تتجدد شيئاً فشيئاً تبعاً لتنوع الخيرات، وتنوع السبل إليها وأيضاً تبعاً لتجدد نشاط المسارع في الخيرات، فقد يستروح قليلاً ليستعيد نشاطه، ويجدد المسارعة في فعل الخيرات، والدعاء أيضاً يعتريه التجدد والحدوث تبعا لما يستجد من حاجات الإنسان رغبة فيما عند الله -تعالي- ورهبة من سخطه وعضبه، فكلما أراد الإنسان شيئاً أو خاف من شئ هُرع إلي مقام الدعاء.

أما الخشوع فلابد وأن يكون ثابتا دائماً لا يتخلله انقطاع أو توقف لأن ترك الخشوع ولو للحظة يؤدى إني الوقوع في المحظور، وهذا بدوره يؤدى إلى الوقوع تحت طائلة المؤاخذة والعقاب، فالخشوع الدائم هو الذي يملأ القلب ويفيض علي الجوارح، "وهو المخافة الثابتة في القلب، والخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفاً من الإثم"[3] هذا هو الذي أوحي به تنوع الصيغ في الآية الكريمة من الفعلية إلي الأسمية، وسبحان من هذا كلامه!!.

---

(1) المفردات: مادة (خشع).

(2) لسان العرب: مادة (خشع).

(3) التفسير الكبير: حـ٢٢ ص٢١٨.

المبحث الثالث

زكريا -عليه السلام- في سياق سورة آل عمران

قال الله -تعالى-: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [1].

تحكي هذه الآيات دعاء زكريا -عليه السلام- يطلب الذرية الطيبة، وبشارة الملائكة له بيحيى -عليه السلام-، وتعجبه من البشارة بالولد على حال الكبر والعقر، والآية على تحقق البشارة. وهذه القصة كما قال أبو السعود: "مستقلة سيقت في تضاعيف حكاية مريم لما بينهما من قوة الارتباط وشدة الاشتباك مع ما في إيرادها من تقرير ما سيقت له حكايتها من بيان اصطفاء آل عمران فإن فضائل بعض الأقرباء أدلة على فضائل الآخرين"[2].

طلب الولد:

رأى زكريا -عليه السلام- في كفالته لمريم -عليها السلام- أمراً عجيباً غريباً فكلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً عظيماً متنوعاً، حتى إن معظم المفسرين يذكرون أنه كان يجد عندها

---

(1) آل عمران: ٣٨-٤١.

(2) إرشاد العقل السليم: حـ٢ ص٣٠، ٣١، وينظر: محاسن التأويل: حـ٤ ص٨٣٨.

فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء[1] فلما سألها زكريا -عليه السلام- من أين يجئ لك هذا الذي لا يشبه أرزاق الدنيا؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

(هنالك) اسم إشارة للمكان في محل نصب على الظرفية المكانية، واللام للبعد والكاف للخطاب[3]، ودلت الإشارة بالبعد على تعظيم المكان الذي دعا زكريا -عليه السلام- ربه -جل في علاه-، وعلو مكانته، وبلوغه الغاية في الطهارة، أليس هو محراب العبادة الذي يطاع فيه رب السموات والأرض، ويحارب فيه الشيطان؟ أليس هو المكان الذي شاهد فيه الفيوضات الإلهية التي تجئ تترى على مريم -عليها السلام-؟.

وقد يراد بـ (هنالك) الإشارة إلى الزمان، أي: في هذا الوقت دعا زكريا ربه. يقول الرازي: في قوله: (هنالك: "إن حملناه على المكان فهو جائز، أي: في ذلك المكان الذي كان قاعداً فيه عند مريم -عليها السلام- وشاهد تلك الكرامات دعا ربه، وإن حملناه على الزمان فهو أيضاً جائز، يعني: في ذلك الوقت دعا ربه"[4].

المعنى: "في ذلك المكان قبل أن يخرج (دعا) وقد نبهه إلى الدعاء مشاهدة خوارق العادة مع قول مريم: ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ والحكمة ضالة المؤمن، وأهل النفوس الزكية يعتبرون بما يرون ويسمعون، فلذلك عمد إلى الدعاء بطلب الولد كما حكى الله -تعالى- عنه في سورة مريم، وأيضاً فقد كان حينئذ في مكان شهد فيه فيضا إلهيا، ولم يزل أهل الخير يتوخون الأمكنة

---

(1) ينظر: جامع البيان: حـ٣ ص٢٤٤، الجامع لأحكام القرآن: حـ٤ ص٧١.

(2) آل عمران: ٣٧.

(3) ينظر: المحرر الوجيز: حـ٣ ص٧٥، الدر المصون: حـ٣ ص١٤٧، فتح البيان حـ٢ ص٢٢٦، محي الدين الدرويش: إعراب القرآن: حـ١ ص٥٠٣.

(4) التفسير الكبير: حـ٨ ص٣٥.

بما حدث فيها من خير، والأزمنة الصالحة كذلك، وما هي إلا كالذوات الصالحة في أنها محال تجليات رضا الله"[1].

فدلالة ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ على أن يتوخي العبد الأمكنة المباركة والأزمنة المشرفة واضحة[2]، ويقول الشيخ محمد عبده – رحمه الله- في (هنالك): "الاستعمال الفصيح فيها أنها للمكان، أي: في ذلك المكان الذي خاطبته فيه مريم بما ذكر دعا ربه، ورؤية الأبناء النجباء تشوق نفس الرائي وتهيج تمنيه لو يكون له مثلهم"[3].

وفي إضافة (رب) إلي ضمير زكريا -عليه السلام- تشريف وتكريم له، وخصت الربوبية بالذكر لما فيها من معنى الإكرام والعطاء والإحسان.

و(رب) في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ منادى محذوف الأداة دلالة علي منتهي القرب من الله –تعالي-، يقول أبو حيان: "وناداه بلفظ (رب) إذ هو مربيه ومصلح حاله"[4]، و(هب) أمر أريد به الدعاء، لأن المقام هنا مقام ضراعة وخشوع، ولفظ الهبة يوحي بان ما طلبه زكريا -عليه السلام- إنما هو محض فضل من ربه، وهبة يهبها له، وليس بالأمر المستحق.

يقول أبو حيان: "وجاء الطلب بلفظ (هب)؛ لأن الهبة إحسان محض ليس في مقابلتها شئ يكون عوضاً للواهب، ولما كان ذلك يكاد يكون علي سبيل مالا تسبب فيه لا من الوالد لكبر سنه، ولا من الوالدة لكونها عاقراً لا تلد فكان وجوده كالوجود بغير سبب أتي هبة محضة منسوبة إلى الله –تعالي- بقوله: (من لدنك)، أي: من جهة محض قدرتك من غير توسط سبب"[5].

---

(1) التحرير والتنوير: حـ٣ ص٢٣٨.

(2) البحر المحيط: حـ٣ ص١٢٦.

(3) تفسير المنار: حـ٣ ص٢٤٣.

(4) البحر المحيط: حـ٣ ص١٢٦.

(5) البحر المحيط: حـ٣ ص١٢٦.

وتقديم الجارين (لي من لدنك) على المفعول (ذرية طيبة) فيه إظهار لكمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع، على ما في التقديم من التشويق إلى المؤخر، فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مستشرفة له، فعند وروده لها يتمكن عندها فضل تمكن[1].

وذرية الرجل: ولده، والجمع الذراري. والذريات، والذرية: اسم يجمع نسل الإنسان من ذكر وأنثى[2]، والمراد بالذرية هنا: الولد، ووصفت الذرية بـ(طيبة)؛ "لأنها التي يرجى منها خير الدنيا والآخرة بحصول الآثار الصالحة النافعة"[3] والمعنى: أعطني يا رب من عندك ولداً مباركاً تقيا صالحاً رضيا.

وجملة: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ تعليل لما قبلها، و(سميع) صيغة مبالغة، وهي أمدح من (سامع) والجملة: تعريض بالإجابة، ومعنى (سميع)، أي: مجيب. يقول الرازي: "ليس المراد منه أن يسمع صوت الدعاء، فذلك معلوم، بل المراد منه أن يجيب دعاءه، ولا يخيب رجاءه، وهو كقول المصلين: سمع الله لمن حمده، يريدون: قبل حمد من حمده من المؤمنين، وهذا متأكد بما قال -تعالى- حكاية عن زكريا -عليه السلام- في سورة مريم: ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾[4].

وجاءت جملة: (إنك سميع الدعاء مؤكدة، وهذا التأكيد غير منظور فيه إلى حال المخاطب، وإنما زكريا -عليه السلام- يراعي حال نفسه ومدى انفعاله بهذه الحقائق، وحرصه على إذاعتها وتقريرها في النفوس كما أحسها مقررة أكيدة في نفسه وواضح أن هذا التأكيد ينظر فيه إلى حال النفس الراجية، ومدى انفعالها بهذا الرجاء، وتأكيدها لهذا الدعاء[5].

---

(1) ينظر: إرشاد العقل السليم: حـ٣ ص٤١٥.

(2) لسان العرب: مادة (ذرر).

(3) التحرير والتنوير: حـ٣ ص٢٣٨.

(4) التفسير الكبير: حـ٨ ص٢٧.

(5) ينظر: خصائص التراكيب: ص٥٧، ٥٩.

مجئ البشارة بالولد:

قال -تعالى-: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

الفاء في قوله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ عاطفة تفيد الترتيب والتعقيب أي: استجيبت دعوته في الوقت والحال وفي الكلام إيجاز بالحذف دل عليه المذكور تقديره: فأجاب الله -تعالى- دعاءه، فوهبه: يحيى، وأرسل الملائكة إليه فنادته.

واختلفت الآراء في المنادى بكسر الدال، فقيل: هو جبريل -عليه السلام-[1]، وعلي هذا يكون الكلام من إسناد الفعل إلي الجنس كله، وهو في الحقيقة مسند إلي بعضه، كقولهم: بنو فلان قتلوا فلاناً، وإنما القاتل رجل منهم، فأسند القتل إلي جميعهم؛ لأنه كان برضاهم، وإن لم يباشره إلا واحدٌ منهم[2]، والنداء كان من جبريل -عليه السلام-، وإنما أسند إلي الملائكة؛ لأنهم كانوا بصحبته وكان هو رئيسهم؛ لذا عبر عنه باسم الجماعة تعظيماً له.

واختار القرطبي والرازي: أن يكون المنادي جميع الملائكة يقول القرطبي: "ناداه جميع الملائكة وهو الأظهر"[3]، ويقول الرازي: "ظاهر اللفظ يدل على أن النداء كان من الملائكة ولا شك أن هذا فى التشريف أعظم"[4].

وأنا أميل لما اختاره القرطبي والرازي؛ لأن المقام مقام تبشير، والبشرى وإن كانت تنفع فيها الإنابة إلا أن البشارة الجماعية تضفي على نفس المبشر مزيداً من البهجة والسرور والسعادة

---

(1) ينظر: إرشاد العقل السليم: حـ٢ ص٣١، تفسير البيضاوى وحاشية الشهاب عليه: حـ٣ ص٢٤، وتفسير الجلالين وحاشية الجمل عليه حـ١ ص٢٦٦.

(2) ينظر: خصائص التراكيب: ص٧٥، ٧٦.

(3) الجامع لأحكام القرآن: حـ٤ ص٧٤.

(4) التفسير الكبير: حـ٨ ص٣٧، وينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان حـ٣ ص١٨٢.

فالملائكة جاءت لتبشر زكريا -عليه السلام- وتشاركه سعادته وفرحته بيحيى -عليه السلام-، فنداء جميع الملائكة لزكريا -عليه السلام- في التشريف أعظم وأفضل.

ويذكر ابن عطية أن (فنادته): "عبارة تستعمل في التبشير، وفيما ينبغي أن يسرع به وينهي إلي نفس السامع ليسر به فلم يكن هذا من الملائكة إخباراً علي عرف الوحي، بل نداء كما نادي الرجل الأنصاري كعب بن مالك من أعلي الجبل"[1].

وقوله: (وهو قائم) جملة حالية من مفعول النداء مقرر لما أفادته الفاء من حصول البشارة عقب الدعاء[2]، وقوله -تعالي-: (يصلي) "يحتمل أوجهاً. أحدها: أن يكون خبراً ثانياً: عند من يرى تعدده مطلقاً، نحو: زيد شاعر فقيه. الثاني: أنه حال ثانية من مفعول النداء، وذلك أيضا عند من تعدد الحال. الثالث: أنه حال من الضمير المستتر في (قائم) فيكون حالاً من حال. الرابع: أن يكون صفة لقائم"[3].

وقوله (في المحراب) متعلق بـ (يصلي)، أو بـ (قائم)، والمعني: "فنادته الملائكة في حال قيامه مصلياً"[4] في المحراب، وهو موضع محاربة العابد للشيطان، وهو أشرف الأماكن كذلك، وجملة الحال (وهو قائم يصلي في المحراب) "فيها إشعار بسرعة إجابته ولزومه معتكفه، وقنوته في قيامه، وأن الغالب علي صلاته القيام؛ لأن الصلاة قيام وسجود بدله، وركوع متوسط، فذكرت صلاته بالقيام إشعاراً بأن حكم القيام غالب عليها"[5].

وفي أشرف البقاع وأفضلها، وأحسن الأحوال وأقربها إلي الله -تعالي- تأتي البشارة لزكريا -عليه السلام-: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ وهذه البشارة جاءت في صورة مؤكدة، لأن البشارة فيها

---

(1) المحرر الوجيز: حـ٣ ص٧٢، والأنصاري نادي كعباً مبشراً له بتوبة الله عليه.

(2) إرشاد العقل السليم: حـ٢ ص٣١.

(3) حاشية الجمل: حـ١ ص٣٦٦.

(4) جامع البيان: حـ٣ ص٢٥٠.

(5) نظم الدرر: حـ٤ ص٣٦٥.

غرابة تثير العجب، ومبعث الغرابة أن هذا الولد يكون من شيخ كبير، وامرأة عاقر، فأسباب الإنجاب منقطعة في الزوج والزوجة، فلغرابة الخبر نزل المخبر به منزلة المتردد الطالب، ومن هنا أكدت البشارة بـ (إن)[1].

وذكر في البشارة لفظ الجلالة (أن الله)، وفي هذا يقول الحرالي: "ذكر الاسم الأعظم المحيط معناه بجميع معاني الأسماء، ولم يقل: (أن ربك) لما كان أمر إجابته من وراء الحكمة العادية"[2].

ويحيى: اسم سماه الله به قبل أن يولد، وفي تسميته "بصيغة الدوام مع أنه كما قيل: قتل، إشارة بوفاء حقيقة الروحانية الحياتية فيه دائماً لا يطرقه طارق موت الظاهر حيث قتل شهيداً"[3].

ولم تقتصر البشارة علي (يحيى) -عليه السلام- بل ضمت إليها البشارة بصفاته الطيبة كما رجا زكريا -عليه السلام- فكانت هذه الصفات: (مصدقا بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبيا من الصالحين) ضمن البشارة، وزادت من سعادة زكريا -عليه السلام- وفرحته وسروره.

و(مصدقا) حال من (يحيى)، و(سيداً وحصوراً ونبيا) معطوف علي (مصدقاً)، وتأمل الحال وما عطف عليها، وكيف أفصحت عن المبشر به، وكشفت عن أحواله وصفاته التى سيكون عليها، وأنه سيعلو شأنه ويتحلي بالصفات الحميدة.

وقد ذكر في البشارة أربع صفات ليحيى -عليه السلام- الصفة الأولي: في قوله -تعالي-: (مصدقا بكلمة من الله)، والمراد ابالكلمة هو عيسى -عليه السلام-، ووصف بقوله: (من الله) لأن الله -تعالي- قال له: كن فكان من غير أبه دلالة علي كمال القدرة فوقع عليه اسم الكلمة؛

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: حـ٣ ص٢٣٩.

(2) نظم الدرر: حـ٤ ص٣٦٥.

(3) نظم الدرر: حـ٤ ص٣٦٥.

لأنه بها كان[1]، "والكلمة علي هذا إشارة إلي مجئ عيسى -عليه السلام-، ولا شك أن تصديق الرسول ومعرفة كونه صادقاً بدون تردد هدي عظيم من الله؛ لدلالته علي صدق التأمل السريع لمعرفة الحق، وقد فاز بهذا الوصف يحيى في الأولين"[2].

والصفة الثانية ليحيى -عليه السلام- هي قوله -تعالى-: (وسيداً). والسيد: الرئيس. والسيد: الذي فاق غيره بالعقل والمال، والدفع والنفع، المعطي ماله في حقوقه المعين بنفسه. والسيد: الذي لا يغلبه غضبه. والسيد: العابد الورع الحليم. وسيد كل شئ: أشرفه وأرفعه[3]، ويدخل في لفظ (سيداً) جميع المعاني المذكورة من العلم والحلم والكرم والعفة والزهد والورع والرئاسة. فيحيى -عليه السلام- "يسود قومه ويفوقهم في الشرف، وكان فائقا للناس قاطبة، فإنه لم يلم بخطيئة ولم يهم بمعصية، فيالها من سيادة ما أسناها"[4].

والصفة الثالثة ليحيى -عليه السلام- هي قوله -تعالى-: (وحصوراً). والحصر في اللغة: ضرب من العي. وحصر صدره: ضاق وحصره المرض: حبسه. والحصير والحصور: الممسك البخيل الضيق. والحصور -وهو المراد هنا- الذي لا يشتهي النساء ولا يقربهن. والحصور: الذي لا يأتي النساء[5]، وفي ضوء ما ذكرنا نجد أن مادة (حصر) تدور في فلك الإمساك والمنع والحبس، وأن يحيى -عليه السلام- كان يبالغ في إمساك نفسه وحبسها عن الشهوات.

---

(1) ينظر: التفسير الكبير: حـ٨ ص٣٨، الجامع لأحكام القرآن: حـ٤ ص٧٦، إرشاد العقل السليم: حـ ٢ ص٣٢، الفتحات الإلهية حـ١ ص٢٦٧، تفسير المنار: حـ٣ ص٢٤٥.

(2) التحرير والتنوير: حـ٣ ص٢٤٠.

(3) لسان العرب: مادة (سود).

(4) إرشاد العقل السليم: حـ٢ ص٣٢.

(5) لسان العرب: مادة (حصر).

ويذكر الرازى أن للمفسرين قولين في (حصوراً). القول الأول: "أنه كان عاجزاً عن إتيان النساء...، وهذا القول عندنا فاسد؛ لأن هذا من صفات النقصان، وذكر صفة النقصان في معرض المدح لا يجوز ولأن على هذا التقدير لا يستحق به ثوابا ولا تعظيماً. والقول الثاني وهو اختيار المحققين: أنه الذي لا يأتي النساء لا للعجز بل للعظة والزهد وذلك لأن الحصور هو الذى يكثر من حصر النفس ومنعها...، والمنح إنما يحصل أن لو كان المقتضى قائماً...، وإلا لما كان حاصراً لنفسه فضلاً عن أن يكون حصوراً، لأن الحاجة إلى تكثير الحصر والدفع إنما تحصل عند قوة الرغبة والداعية والقدرة"[1].

ويقول أبو حيان: "وإيراد الحصور وصفا في معرض الثناء الجميل إنما يكون عن الفعل المكتسب دون الجبلة في الغالب، والذي يقتضيه مقام يحيى -عليه السلام- أنه كان يمنع نفسه من شهوات الدنيا من النساء وغيرهن، ولعل ترك النساء زهادة فيهن كان شرعهم إذ ذاك"[2].

والصفة الرابعة ليحيى -عليه السلام- هي قوله -تعالي-: (ونبيا) وهذا هو الوصف الأشرف وهو أعلي الأوصاف ولما كان النبي لا يكون إلا صالحاً لم يعطف بل قال: (من الصالحين) إعلاماً بمزية رتبة الصلاح[3]، وبين هذه الصفات تناسب لأنها تشترك في الفضل والخيرية فهي من مراعاة النظير.

ورتبت تلك الصفات ترتيبا بديعاً حيث "ذكر أولاً الوصف الذي تبنى عليه الأوصاف بعده وهو التصديق الذي هو الإيمان ثم ذكر السيادة وهي الوصف الذي يفوق بها قومه، ثم ذكر

---

(1) التفسير الكبير: حـ٨ ص٤٠، وينظر: المحرر الوجيز حـ٣ ص٧٧، وغرائب القرآن حـ٣ ص١٨٤، محاسن التأويل: حـ٤ ص٨٣٩.

(2) البحر المحيط حـ٣ ص١٣٣.

(3) ينظر: البحر المحيط: حـ٣ ص١٣٤، نظم الدرر: حـ٤ ص٣٦٧.

الزهادة وبخاصة فيما لا يكاد يزهد فيه وذلك النساء، ثم ذكر الرتبة العليا وهي رتبة النبوة"[1]، وهذه الصفات فيها إشارة إلي أن يحيى -عليه السلام- سيحيا ويتصف بهذه الصفات، وفي هذا إسعاد لقلب المبشر زكريا -عليه السلام-.

تساؤل وتعجب:

قال الله -تعالي-: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

الظاهر أن الخطاب في هذه الآية من زكريا -عليه السلام- لربه الكريم المنعم، مع أن الخطاب الواصل إليه كان بواسطة الملائكة فلماذا لم يخاطب الملائكة الذين نادوه بالبشري؟ إن زركيا -عليه السلام- جري علي نهج دعائه السابق في التقرب إلي الله -تعالي-، وكما طرح من النداء أداة البعد إشارة إلي القرب طرح من الخطاب الوسائط وتوجه مباشرة إلي المحسن إليه مبالغة في التضرع والمناجاة، واجتهاداً في التبتل إلي الله -عز وجل-، يقول أبو الطيب صديق حسن خان: "وخاطب -عليه السلام- ربه -سبحانه- ولم يخاطب الملك المنادي طرحاً للوسائط مبالغة في التضرع وجداً في التبتل"[2].

و(أني) في قوله -تعالي-: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ بمعني: (كيف)، أو بمعني: من أين، وهذا الاستفهام كما ذكر في سورة مريم أريد به التعجب، يقول ابن عاشور: "وقوله: (أني يكون لي غلام) استفهام مراد منه التعجب، قصد منه تعرف إمكان الولد، لأنه لما سأل الولد فقد تهيأ لحصول ذلك، فلا يكون قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ إلا تطلبا لمعرفة كيفية ذلك على وجه يحقق

---

(1) البحر المحيط: حـ٣ ص١٣٤.

(2) فتح البيان حـ٢ ص٥١، وينظر: روح المعاني: حـ٣ ص١٤٨، إرشاد العقل السليم: حـ٢ ص٣٢.

له البشارة، وليس من الشك في صدق الوعد، وهو كقول إبراهيم -عليه السلام-: (ليطمئن قلبي)، فأجيب بان الممكنات داخلة تحت قدرة الله -تعالى- وإن عز وقوعها في العادة"[1].

وتقديم الجار والمجرور على الفاعل (لي غلام) يفيد الاهتمام والاعتناء بما قدم، والتشويق إلي ما أخر. ولفظ (غلام) فيه إشارة إلي أن يحيى -عليه السلام- سيعيش وينمو ويكون غلاماً مكتملاً قويا، فالأسلوب من المجاز باعتبار ما سيئول إليه أمر هذا المولود.

وتنكير (غلام) مع تسميته (يحيى) قبل هذه الآية لأن التعجب مسلط علي إنجاب جنس الغلام لا علي شخص بعينه[2]، وجملة (وقد بلغني الكبر) حال من ياء المتكلم، أي: أدركني كبر السن وأثر في، "وأصله: وقد بلغت الكبر، وفائدته إظهار تمكن الكبر منه كأنه يتطلبه حتى بلغه"[3].

والكبر ليس من الأجرام، وحقيقة البلوغ تكون في الأجرام بأن ينتقل البالغ إلى المبلوغ إليه، وفي ضوء هذا يكون في الكلام استعارة بتشبيه الكبر بإنسان، ثم حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه وهو (بلغني) على سبيل الاستعارة المكنية، وقد أضفت الاستعارة علي (الكبر) شوبا من الحركة والترقب والطلب حتى بلغ زكريا -عليه السلام- ولم لا وهو طليعة من طلائع الموت؟.

وفرق بين أن تقول: (بلغني الكبر) وأن تقول: بلغت الكبر، ويفصح عن هذا الفرق العلامة ابن عطية فيقول: "وحسن في الآية (بلغني الكبر) من حيث هي عبارة واهن منفعل، و(بلغت) عبارة فاعل مستعل فتأمله، ولا يعترض علي هذا بقوله: ﴿وقد بلغت من الكبر عتيا﴾؛ لأنه قد أفصح عن ضعف حاله في ذكر العتي"[4].

---

(1) التحرير والتنوير: جـ٣ ص٢٤١، ٢٤٢.

(2) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: جـ٢ ص٢٦٩.

(3) التحرير والتنوير: جـ٣ ص٢٤٢.

(4) المحرر الوجيز: جـ٣ ص٧٨، ٧٩.

وعطفت جملة (وامرأتي عاقر) على جملة: (وقد بلغني الكبر) لأنهما خبريتان لفظاً ومعنى فبينهما التوسط بين الكمالين. والعقر: العقم والعاقر: المرأة التي لا تلد. وثمت فرق بين إخبار زكريا -عليه السلام- عن كبره، وإخباره عن عقر امرأته: (بلغني الكبر وامرأتي عاقر) فإخبار زكريا -عليه السلام- عن كبره جاء بالجملة الفعلية، وإخباره عن عقر امرأته جاء بالجمة الأسمية، وهذه المغايرة لابد لها من إيحاءات وإشارات تستشف من طبيعة هذه اللغة الشريفة، "فالجملة الأولي فعلية؛ لأن الكبر يتجدد شيئاً فشيئا، ولم يكن وصفاً لازماً، وكانت الجملة الثانية اسمية؛ لأن كونها عاقراً وصف لازم لها وليس أمراً طارئاً عليها"(١).

والمعني: كيف يكون لي ولد والحال أني وامرأتي على حالة منافية له كل المنافاة؟ وإنما قاله -عليه السلام- مع سبق دعائه بذلك، وقوة يقينه بقدرة الله -تعالي- عليه لاسيما بعد مشاهدته للشواهد السالفة، استعظاما لقدرة الله -تعالي- وتعجبيا منها، واعتداداً بنعمته -عز وجل- عليه في ذلك(٢).

وجملة: (قال كذلك الله يفعل ما يشاء) استئناف بياني، أي: يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل وهو خلق الولد من الشيخ الفاني والعجوز العاقر، واسم الإشارة يفيد التفخيم، وما فيه من البعد يشير إلي تعظيم هذا الفعل وبعده عن أن يفعله غير الله -تعالي-.

يقول الدكتور المطعني: "كذلك الله يفعل ما يشاء" صورة تشبيهية، المشبه به اسم الإشارة (ذلك) والمشبه هو فعل الله كل ما يشاء من الأفعال، والتقدير: مثل ذلك الفعل وهو خلق الله ولداً من عجوزين في طلاقة القدرة هين، يفعل الله كل ما يريد، والتعبير باسم الإشارة (ذلك) للإشعار

(١) روح المعاني: حـ٣ ص١٤٩.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: حـ٢ ص٣٣.

بفخامة المشار إليه من كونه إحدي المعجزات"[1]، وصيغة المضارعة (يفعل) تفيد التجدد والحدوث، ففعل الله -تعالي- لمثل هذا الفعل العجيب متجدد وقتما يشاء -سبحانه- ويريد.

طلب الآية علي حصول البشارة:

قال -تعالي-: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾.

أراد زكريا -عليه السلام- لفرط سروره بما بشر به ويقينه في كرم ربه -سبحانه- وإنعامه عليه، أراد أن يجعل الله له علامة يعرف بها حصول ما بشر به، وهل هو قريب أم بعيد؟ فقال -كما حكي القرآن الكريم عنه-: (قال رب اجعل لى آية) و(رب) منادى محذوف الأداة؛ دلالة على قرب زكريا -عليه السلام- من ربه -سبحانه-، وكيف لا وهو قائم بين يديه وفي محراب العبادة؟ ونداء صفة الربوبية فيه ما فيه من استعطاف المحسن -سبحانه، واستدرار الصلاح والإحسان للمربوب.

ولفظ (اجعل) أمر أريد به الدعاء، وفيه مزيد شوق إلى تحقق البشارة، وقدم الجار والمجرور (لي) على المفعول (آية) اهتماماً بالمقدم وتشويقا للمؤخر. و(آية) بمعني: علامة ظاهرة، وتستعمل الآية في الأمر العجيب الغريب، الذي يثير الدهشة ويدعو إلي التعجب، وليس هناك أعجب من الآية التي دل الله -تعالي- بها زكريا -عليه السلام- على حصول الحمل بالولد، وهذا الحذف يبرز شوق زكريا -عليه السلام- وتشوفه وتطلعه لحصول تلك البشارة.

ولما طلب زكريا -عليه السلام- آية ليعلم بها وقت حصول الحمل بيحيى -عليه السلام- جاء قوله -تعالي-: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾ متضمنا مطلوب زكريا -عليه السلام-، أي: جعلنا لك آية وكما قال البيضاوي: "وأحسن الجواب ما اشتق من السؤال، أي: أخذ منه وانتزع

---

(1) التفسير اللاغي للاستفهام: حـ١ ص١٦٣.

بأن يكون يناسبه لفظاً ومعنى؛ لأنه لما سأل آية لأجل الشكر أجيب بأنه: أن لا يقدر إلا على الشكر، كما قيل لأبي تمام: لم تقول ما لا يفهم؟ فقال: لم لا تفهم ما يقال؟"[1].

والآية التي جعلها الله -تعالى- لعبده زكريا -عليه السلام- هي حبس لسانه ثلاثة أيام، لا يقدر أن يكلم الناس إلا رمزاً، وفي هذا دلالة على حصول المطلوب وعلوق الولد وفي تقييد الفعل بالمفعول (ألا تكلم الناس) إشارة إلى أن امتناع الكلام عن زكريا -عليه السلام- إنما هو خاص بالمفعول[2] (الناس) أما غير الناس فلم يمتنع منه الكلام، وإنما كان قادراً على الذكر والتسبيح والتهليل، فحبس لسانه إنما كان عن مكالمتهم خاصة.

وإنما جعلت آيته حبس لسانه عن كلام الناس لتخلص المدة لذكر الله -تعالى- وشكره قضاء لحق النعمة، كأنه قيل: آية حصول المطلوب ووصول النعمة أن يحبس لسانك إلا عن شكرها، وبهذا تصبح آية زكريا -عليه السلام- علامة على المقصود، وأداة لشكر تلك النعمة[3].

وحدد الله -سبحانه- مدة انحباس لسان زكريا -عليه السلام- بثلاثة أيام بلياليها كما دل عليه التعبير بالليالي في سورة مريم، والاستثناء في قوله: (إلا رمزاً) منقطع؛ لأن الرمز ليس من جنس الكلام. فالرمز في اللغة: إشارة وإيماء بالعينين أو الحاجبين أو الشفتين أو الفم[4]، والإشارة تدل على ما في نفس البشر من خلجات ومعان.

وبعد بيان الآية لزكريا -عليه السلام- يأتي قوله -تعالى-: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أمراً بالذكر والتسبيح، وهو -عليه السلام- الذاكر المسبح، فالمراد بالأمر في الجملتين ليس هو تحصيل الذكر والتسبيح، لأنهما حاصلان وإنما المراد: الثبات والدوام على الذكر والتسبيح، والزيادة

---

(1) تفسير البيضاوي وحاشية الشهاب عليه: حـ٣ ص٢٥، وينظر: إرشاد العقل السليم حـ٢ ص٣٤.

(2) ينظر: دلائل الإعجاز: ص١٥٣-١٥٥، الإيضاح: حـ١ ص٢١٥.

(3) ينظر: إرشاد العقل السليم: حـ٢ ص٣٤، التفسير الكبير: حـ٨ ص٤٤.

(4) لسان العرب: مادة (رمز).

منهما، وفائدة هذه الطريقة وفضلها على قولنا: استمر في الذكر والتسبيح، أو ازدد منهما: "هي أنها تفيد مع ذلك الإلهاب والتهييج، وتثير الشعور والوجدان، فتكون النفس أحسن تلقيا وأكثر تمسكاً بما هو كائن"[1].

والأمر بالتسبيح داخل في الأمر بالذكر، وقد عطف عليه من قبيل عطف الخاص على العام؛ لأن الأمر بالذكر متناول للتسبيح والتسبيح داخل في الذكر، وهذا العطف يفيد الاهتمام بالتسبيح ويؤكده، وكأنه قد أمر بالتسبيح مرتين، مرة عن طريق العموم، ومرة عن طريق التفصيل؛ وذلك لما في التسبيح من التقرب إلى الله -تعالى-، وتنزيهه عن كل نقص، وما يتبع ذلك من عطاءات الله -تعالى- لعبده المسبح.

وانظر إلى لطافة المعنى في إضافة (رب) إلى ضمير المخاطب، فإن في هذه الإضافة تذكيراً للمخاطب بجلائل النعم التى تفيض من الربوبية على المربوب والرعاية التى تحيط به من كل جانب وحسن التدبير، فهو الذي رباه أحسن تربية ونشأه أحسن تنشئة، ورعاه خير رعاية، وهو ربه الذي قربه أفضل تقريب، وزاده شرفاً بإضافته إلى حضرته، وأنعم عليه بنعمة الولد على حين كبر، و(كثيراً) صفة لموصوف محذوف أريد بها تأكيد الأمر، والمعنى: ذكراً كثيراً.

وذكر القرطبي أن معنى: (وسبح)، أي: صل، وقال أبو السعود: المراد بالتسبيح: الصلاة بدليل تقييده بالوقت (بالعشي والإبكار)، كما في قوله -تعالى-: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾[2]، وهو شديد الموافقة لقوله -تعالى-: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾[3]، وإنما

---

(1) من أسرار التعبير القرآني: ص٤٨.

(2) الروم: ١٧.

(3) هود: ١١٤.

سميت الصلاة: تسبيحاً؛ لأنها تشتمل على التسبيح، ففيها ما فيها من تنزيه الله –تعالي- عن السوء وتسبيحه[1]، ويعد هذا من قبيل المجاز المرسل بعلاقة الجزئية.

ولذا قلنا: إن العطف في جملة: (وسبح) من عطف الخاص على العام، لأن التسبيح الذي هو الصلاة أخص من الذكر باللسان؛ لذا قيد بالزمن، أما الذكر فهو أعم؛ ولذا لم يقيد بزمن معين وإنما هو مأمور به على صفة الكثرة في كل وقت وحين.

أما الوقت الذي قيد به التسبيح، فهو قوله –تعالي-: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾، وقد حذف مفعول التسبيح للعلم به ولدلالة مفعول (اذكر ربك) عليه، فهو المحسن المعطي، واهب النعمة الجدير بالذكر والتسبيح. والعشي: يقع على ما بين زوال الشمس إلى وقت غروبها، وقيل: العشي: من صلاة المغرب إلى العتمة. والعشي: آخر النهار[2].

والإبكار: مصدر بكر يبكر إبكاراً: إذا خرج للأمر أول النهار. والإبكار: جمع بكرة التي هي أول النهار[3]، وهي من طلوع الفجر إلي الضحي. وقد أضفي الطباق بين اللفظين (بالعشي والإبكار) علي الكلام طلاوة وجمالاً، وأكسب المعني حسنا ونبلاً مع تثبيت المعني في النفس وتقريره، فهذان الوقتان تتجلي فيهما آيات الحق، فهما المقطعان اللذان يتعاقب عندهما الليل والنهار، وهما من آيات الله الكبري –سبحانه–ن وقد نبه القرآن إلي هاتين الآيتين في كثير من الآيات، وفيهما تتجلي أيضاً عظائم نعم الله –تعالي- علي الإنسان.

---

(1) ينظر: الجامع لأحكام القرآن حـ٢ ص٨٢، التفسير الكبير: حـ٨ ص٤٦، إرشاد العقل السليم: حـ٢ ص٣٤.

(2) لسان العرب: مادة (عشا).

(3) المفردات: مادة (بكر).

المبحث الرابع

أسرار التشابه والتنوع في نبأ زكريا -عليه السلام-

بعد أن انتهينا من التحليل البلاغي للنظم القرآني في السور الثلاث التي تخبرنا بنبأ زكريا -عليه السلام- نأتي إلي التأمل في نظم هذه الآيات مجتمعة لنقف علي ما فيها من تشابه وتنوع، محاولين الكشف عن الأسرار البلاغية التى تراءت لنا في ذلك.

أولاً: الدعاء والنداء:

أول ما يترآى لنا في هذا النظم الشريف: وقوف زكريا -عليه السلام- خاشعاً ضارعاً مبتهلاً إلي ربه المحسن داعياً إياه أن يرزقه من يرثه ويرث من آل يعقوب، وقد تنوع النظم في التعبير عن هذا في السور الثلاث، ففي سورة مريم، جاء قوله تعالي: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا. إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا﴾، وفي سورة الأنبياء جاء قوله -تعالي-: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّه﴾، وفى سورة آل عمران جاء قوله تعالى: هنالك دعا زكريا ربه والتنوع في هذه الآيات واضح، فزكريا -عليه السلام- (نادي) ربه في سورة مريم والأنبياء، بينما نجده (دعا) ربه في سورة آل عمران، فما السر البلاغي في هذا التنوع؟ وما الداعي إليه؟ وهل ثمت فرق بين الدعاء والنداء؟ز

الدعاء والنداء من الكلمات القرآنية، وهما تشتركان في طلب الإقبال من المدعو، والمنادي، وهذا الاشتراك لا يتنافي مع وجود فروق دقيقة بينهما، فالأصل في الدعاء أن يكون من الأدني إلي الأعلي، ولابد في الدعاء من افتقار الداعي إلي المدعو، ويكون الداعي هو المستفيد من الدعاء لا المدعو[1]، وهذا ظاهر في دعاء زكريا -عليه السلام- ربه -تعالي-؛ لأن زكريا والناس جميعا في حاجة إلي الله -تعالي- يفتقرون إليه علي أي وجه، وفي أي صورة كان ذلك الافتقار[2].

---

(1) ينظر: المفردات مادة (دعا).

(2) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن: ص٢٥٢-٢٥٧.

والأصل في النداء أن يكون برفع الصوت فهو أخص من الدعاء، والنداء في المعاجم هو الدعاء[1]؛ لأن المطلوب بكل منهما الإقبال نحو المنادئ أو الداعي سواء كان الإقبال بالانتقال الجسدي أو بالانتباه الذهني، والأصل في الخلق أن يدعوا دعاءً افتقار إلي المدعو لا أن ينادوا، فإن نادوا كان نداؤهم دعاء، ويكون للنداء دواع بلاغية[2].

ونداء زكريا -عليه السلام- ربه الكريم في سورة مريم والأنبياء غير جار علي الأصل، بل كان ينبغي أن يكون دعاء لا نداء؛ لأن النداء يكون للبعيد، والله أقرب للمرء من حبل الوريد، وهو القائل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[3]؛ ولأن الله أمر عباده أن يدعوه لا أن ينادوه فقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[4].

وزكريا -عليه السلام- نبي، والأنبياء أعرف الناس بربهم، وليس زكريا -عليه السلام- وحده وهو النبي نادي ربه، وإنما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ﴾[5] ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾[6]، ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[7]، فكيف نادي هؤلاء الرسل ربهم ولم يدعوه وهم أعرف الناس بربهم[8]؟.

يقول الدكتور المطعني: "لقد تتبعنا هذه المواضع -نداء الرسل ربهم- فوجدناها تخضع لظرف واحد كان هو السبب في أن يلجأ هؤلاء الرسل الكرام إلي النداء بدلاً من الدعاء الذي هو

---

(1) لسان العرب: مادة (ندي).

(2) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن: ص٢٥٩.

(3) البقرة: ١٨٦.

(4) غافر: ٦٠.

(5) هود: ٤٥.

(6) الأنبياء: ٨٣.

(7) الأنبياء: ٨٧.

(8) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن: ص٢٥٩-٢٦٤.

الأصل: ذلك الظرف هو الشدة البالغة، والكرب العظيم الذي كان يعتري كلا منهم، فنداء نوح ربه كان سببه تعرض ابنه — وهو أقرب الناس إليه- للهلاك، فنادي رافعاً صوته رغبة في إنقاذ ابنه، فحالته الشعورية القلقة هي السبب في النداء، لا بعد المنادي، وهو الله —تعالي-.

ونوح هذا الذي نادي هنا ولم يدع هو الذي حكي عنه القرآن في موضع آخر أنه دعا ولم يناد: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[1] وهذا ينبئ عن جزعه على غرق ابنه أكثر من شكواه من تكذيب قومه له؛ لما أودع الله في قلوب الآباء من شفقة علي الأبناء، وهذا ينطبق على أيوب ويونس — ذي النون — وزكريا كلهم كانوا حين نادوا ربهم تحت ضغط شديد من جراء ما حل بهم من ابتلاء من الله، فالنداء المحكي عن هؤلاء الرسل كان الباعث عليه حال المنادي لا بعد المنادي"[2].

وما ذكره الدكتور المطعني تعليلاً لنداء الأنبياء ربهم بدلاً من الدعاء تعليل قيم ويتناسب مع أحوالهم التي نادوا فيها ربهم، إنهم كانوا في شدة وكرب: نوح -عليه السلام- يرى ابنه تبتلعه الأمواج الطاغية فيرغب في إنقاذه، وأيوب -عليه السلام- يري المرض قد بلغ به مبلغاً فيرغب في الشفاء، ويونس -عليه السلام- يجد نفسه في غم وظلمات فيرغب في النجاة، وزكريا -عليه السلام- يجد نفسه قد عتا ووهن عظمه، وشاب رأسه فيرغب في الولد، إنها شدائد بالغة تعرض لها هؤلاء الرسل، وكرب عظيم ابتلوا به فدعاهم هذا الكرب وتلك الشدائد إلي النداء لا إلي الدعاء.

وزكريا -عليه السلام- كان في قمة القلق والخوف؛ ولذا نجده في ندائه تجيش نفسه استعطافاً واستدراراً لرحمة ربه إنه كبر ووهن عظمه، واشتعل رأسه شيبا، وامرأته عاقر والخوف يملأ قلبه من فساد الموالي وإفسادهم، كل هذا الشعور بما فيه من خوف وقلق جعله يهرع إلي ربه منادياً مستوهباً وليا، طالبا من ربه —سبحانه- ألا يتركه فرداً بلا ثان.

---

(1) القمر: ١٠.

(2) دراسات جديدة في إعجاز القرآن: ص٢٦٤.

وبعد أن ظهر لنا أن النداء المحكي عن زكريا -عليه السلام- في سورة مريم والأنبياء كان الباعث عليه حال المنادي نرجع إلي السؤال الذي سقناه أولاً، وهو: لماذا خولف هذا النهج -النداء- في سورة آل عمران وحل الدعاء محل النداء: (هنالك دعا زكريا ربه)؟.

وقد حاولت أن أجد فيما قرأت من يستفتح علي في بيان سر هذا التنوع فلم أجد، لكن الله -تعالي- هداني بعد طول توقف إلي أن هذه المغايرة استدعاها تغير الحال الذي كان عليه زكريا -عليه السلام- عند النداء، إن حالة زكريا -عليه السلام- عند النداء كانت مشحونة بالخوف والقلق، وكأن شيئاً ما ينازعه ويدفعه دفعاً في شوق ولهفة إلي أن ينادي ربه طالباً منه الولد، فجاءت البشارة في سورة مريم مباشرة من الله -تعالي- لعبده المنادي: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ وفي سورة الأنبياء: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾.

وبهذه البشارة هدأت نفس زكريا -عليه السلام- واطمأن فؤاده فتغيرت حالته الشعورية القلقة إلي حالة فيها سكينة وهدوء وراحة وسعادة، فلما رأي ما رأي من الرزق الذي يسوقه الله -تعالي- لمريم -عليها السلام- في غير حينه وغير مقيد بقيود الأسباب، طمع فيما عند الله -تعالي-، فتوجه إليه -سبحانه- داعيا لا مناديا؛ لأن الله -تعالي- قد أزال همه وفرج كربه وبشره بغلام اسمه يحيى، فشعر بأن رحمة ربه تحيط به وتعطيه وأنها قريب من المحسنين فتوجه إلي ربه -سبحانه- داعيا إياه أن يرزقه ذرية طيبة.

ومما يؤنس النفس إلي هذا الذي ذكرته أن سورتي مريم والأنبياء أسبق نزولاً من سورة آل عمران، فكأن النزول يحكي لنا ترتيب الأحوال التي اعترت زكريا -عليه السلام، حيث جاشت نفسه لكبر سنه وضعف بدنه وشيب رأسه وعقر امرأته: فنادي ربه، فلما جاءته البشرى بيحيى وسعدت نفسه وذهب عنه الروع: دعا ربه، وترتيب تبدل حال زكريا -عليه السلام- أولاً وثانياً: يتناسب مع ترتيب نزول السور الثلاث مريم والأنبياء وآل عمران.

وثمت شيء آخر يقوي ما ذكرته من تعليل للتنوع بين النداء والدعاء في نبأ زكريا -عليه السلام-، وأنه تابع لتغير حال زكريا -عليه السلام- من كرب الكبر إلي بشري الولد، هذا الشيء هو أن زكريا -عليه السلام- في ندائه في مريم طلب (ولياً) أي: ابناً يكون من أولياء الله، وفي ندائه في الأنبياء طلب ألا يتركه الله فرداً (رب لا تذرني فرداً) والفرد: ضد الزوج. والفرد: نصف الزوج، ويقال: استفردت الشيء: إذا أخذته فرداً لا ثاني له ولا مثل، والفرد: ما كان وحده[1]. والمعني: أنه طلب من الله -تعالي- ألا يتركه فرداً بلا ولد يكون له ثان وقرين، وفي كلتا السورتين وعقب النداء مباشرة بشره الله -تعالي- بيحيى، ففرج كربه وهدأت نفسه وسعد قلبه.

فإذا ما جئنا إلي سورة آل عمران، وهي آخر السور الثلاث نزولاً نجد زكريا -عليه السلام- تغير حاله فقد زال كربه وجاءته البشرى، ومن هنا رجع إلي أصل الطلب من الله -تعالي- وهو الدعاء لا النداء، إذ "الأصل في الخلق أن يدعوا دعاء افتقار إلى المدعو لا أن ينادوا فإن نادوا كان نداؤهم دعاءً"[2].

وتبعاً لتغير حال زكريا -عليه السلام- من الخوف إلي البشري فقد تغير مطلوبه أيضاً، إنه لا يطلب في آل عمران ولداً، ولم يطلب ولداً وقد بشر به؟ وإنما يطلب (ذرية طيبة) كما حكي القرآن عنه قوله: (رب هب لي من لدنك ذرية طيبة).

والذرية: أصلها الصغار من الأولاد، واللفظ يستعمل للواحد والجمع، وأصله الجمع[3]، فهل حدث لزكريا -عليه السلام- تنوع في المطلوب كما حدث له تغير في الحال؟ هل حدث له بعد أن بُشر بحيي واستقر في نفسه أن رحمة الله قريب منه، ولا يقف أمامها مانع كبر أو ضعف أو عقر من أن تهب له ولداً تقر به عينه، وتهدأ به نفسه، هل حدث له طمع في رحمة الله -تعالى-

---

(1) لسان العرب: مادة (فرد).

(2) دراسات جديدة في إعجاز القرآن: ص٢٦٢.

(3) المفردات: مادة (ذرو).

واستشرفت نفسه إلى المزيد من عطاءات ربه -سبحانه- وتعالى- فطلب (ذرية طيبة) بمعناها الجمعي؟ ولم لا؟ والنفس البشرية- وإن كانت لنبي- زُين لها حب البنين؟ ولم لا، وقد وجد زكريا -عليه السلام- نفسه أمام عطاءات إلهية غير مقيدة بقيود الأسباب تتري على مريم -عليها السلام-؟.

إن زكريا -عليه السلام- في مريم والأنبياء من خوفه وهمه وقلقه (نادي) فبشره ربه -سبحانه- بحيي، فلما جاءته البشرى واستيقن من ذكر رحمة ربه له، ورأى الرزق يتنزل على مريم -عليها السلام- بغير حساب (دعا) ربه أن يرزقه (ذرية طيبة) ملمحاً بلفظ (الذرية) إلى أن مطلوبه اكثر من ولد وليس بعزيز على من يرزق بغير حساب، ويعطي مع انعدام الأسباب.

وهذا كاف في بيان سرّ التنوع في توجه زكريا -عليه السلام- إلى ربه -تعالى- تارة مناديا، وأخرى داعياً، وأن ذلك التنوع مرجعه إلى مقتضى حال زكريا -عليه السلام- كما ذكرنا.

ثانياً: بشارة الله -تعالى- وبشارة الملائكة:

الأمر الثاني الذي يترآي لنا في هذه النظم الشريف هو التنوع في البشارة، وتنوع طلب زكريا -عليه السلام- من الولي إلى الذرية ربما يفسر لنا التنوع في البشارة بيحيى -عليه السلام- ففي سورة مريم جاءت البشارة بيحي فقط : ﴿**يا زكريا إنا نبشرك بغلام أسمه يحي لم نجعل له من قبل سمياً**﴾ وفي الأنبياء كذلك: ﴿**فاستجبنا له ووهبنا له يحي وأصلحنا له زوجه**﴾، أما في سورة آل عمران فقد جاءت البشارة بصفات ليحي -عليه السلام- ﴿**فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحي مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين**﴾ فهل استجاب الله -سبحانه- لما لمح به زكريا -عليه السلام- في طلبه الذرية الطيبة، وأنه يريد المزيد من الأولاد؟ ومن هنا كانت البشارة بيحيى في آل عمران متضمنة ذكر الصفات الأربع: (مصدقا بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين) وكأن الله -تعالى- يقول لعبده زكريا -عليه السلام- إن مولوداً بهذه الصفات خير من أمة فضلاً عن جمع من الأولاد، وكأن زكريا -عليه السلام- لما طلب المزيد من الأولاد أعطاه الله -تعالى- المزيد من الصفات للموهوب يحي المصدق السيد الحصور النبي الصالح، وهذا

مما يُسعد زكريا –عليه السلام– ويشرح صدره، فولد بهذه الصفات كأنه جمع من الأولاد بل هو أفضل وأحسن من أولاد مجردين من تلك الصفات.

وثمت أمر آخر يتعلق بفاعل البشارة، ففي سورة مريم تجد هذا النداء الحاني الرحيم الذي يتناسب مع قلق زكريا –عليه السلام– وخوفه: ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام أسمه يحي لم نجعل له من قبل سمياً﴾ فالمبشر هو الله –جلت قدرته– والمنادي هو الله –تبارك اسمه، وفي الأنبياء لم يذكر لفظ البشارة، وإنما ذكر لفظ الاستجابة والهبة: ﴿فاستجبنا له ووهبنا له يحي﴾ وفي سورة آل عمران نجد هذا النداء الملائكي: ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلى في المحراب أن الله يبشرك بيحي مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين﴾ فالمنادي في آل عمران هم الملائكة، ونداؤهم كان بالبشارة المسندة إلى الله –تعالى– : (ان الله يبشرك) ولم تقل الملائكة إنا نبشرك بيحي كما قالت لإبراهيم –عليه السلام– (إنا نبشرك بغلام عليم)[1].

ويلوح لي الآن معنيان، أولهما: أن البشارة واحدة وأنها بيحي –عليه السلام– وأن المبشر بذلك هو الله –جلت قدرته–، وهذا ثابت في سورة مريم: ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام أسمه يحي﴾، وأن مجيء الملائكة إلى زكريا –عليه السلام– في سورة آل عمران إنما كان لتهنئته ومشاركته الفرحة بهبة الله –تعالى– له، وفي هذا مزيد تكريم وتشريف لزكريا عليه السلام.

الأمر الثاني: وهو الأظهر بالنسبة لي أن هناك بشارتان لا بشارة واحدة، البشارة الأولى: كانت بيحيى –عليه السلام– والمبشر بها هو الله جلت قدرته، وهذا هو الوارد في سورة مريم: ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى﴾.

والبشارة الثانية: كانت بصفات يحيى –عليه السلام–:"مصدقا بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين" والمبشر بها هو الله –جلت قدرته– والملائكة عليهم السلام– باشروا تبليغ تلك البشارة لزكريا –عليه السلام– ولفظ المضارعة في قول الملائكة: "أن الله يبشرك" يشير إلى أنها

---

(1) الحجر ٥٣.

بشارة جديدة حادثة لوقتها، وليست هي الواردة في مريم، وإنما ذُكر (يحيى) في قول الملائكة، تمهيداً لإجراء الصفات المبشر بها عليه، هذا ما هُديت إليه واطمانت نفسي، سائلاً ربي التوفيق والسداد.

ثالثاً: المرأة والزوج

ومما يبدو من دقائق النظم القرآني في نبأ زكريا -عليه السلام- استعمال كلمتي (المرأة والزوج) فقد جاء لفظ (المرأة) على لسان زكريا -عليه السلام- ثلاث مرات، مرة: في مقام الدعاء والبث والشكوى واستيهاب الولد قال تعالى: ﴿**وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك وليا**﴾، ومرتين في مقام الاستغراب والعجب من بشرى الولد لشيخ وعاقر، قال تعالى: ﴿ **قال رب أني يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا** ﴾

وفي سورة آل عمران: ﴿ **قال رب أني يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً**﴾ أما لفظ (الزوج) فقدر ورد مرة واحدة في نبا زكريا - عليه السلام- في سورة الأنبياء إخبارا من الله تعالى: ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىَ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ**﴾ فأي سرٍّ دعا إلى هذا التنوع والقصة واحدة؟ ولماذا لم يقل في سورة الأنبياء: وأصلحنا له امراته تمشياً مع ما جاء في سورتي مريم وآل عمران؟ وهل يوجد فرق بين المرأة والزوج في العرف اللغوي والبيان القرآني؟

أما العرف اللغوي فللمرأة فيه دلالتان، إحداهما: الدلالة على (الأنوثة) المقابلة بـ (الرجولة)، والمقصود بهما هنا النوع يقال: امرأة تأنيث امرئ [1]

والثانية: الدلالة على الزوج وبخاصة إذا أضيفت إلى الرجل يقال: امرأة فلان يعني: زوجه، ويقال للمرأة: الزوجة، وزوج المرأة: بعلها، وزوج الرجل: امرأته والرجل: زوج المرأة، وهي: زوجة وزوجته.[2]

هذا هو معني لفظة المرأة والزوج في اللغة تُفسِّر إحداهما بالأخرى ويتبادلان المواقع دون ادني فرق.

---

(1) لسان العرب، مادة (مرأ)

(2) لسان العرب، مادة (زوج).

والكلمتان وردتا في القرآن الكريم ولهما فيه استعمال خاص بديع لطيف هو من سمة إعجاز القرآن البياني، لأن القرآن الكريم يتناول مفردات اللغة تناولاً ليس له نظير في كلام البشر مهما أوتوا من البلاغة والفصاحة، حيث يستعمل الكلمة في موضع لا تصلح له غيرها مهما كان بينهما من تشابه واتصال.

وهاتان الكلمتان (المرأة والزوج) تحملان من سمات البيان القرآني ما يدعو إلى الدهش وشدة الإعجاب فهيا بنا نجتلي كما يقول الدكتور المطعني، ما يُثلج الصدور ويقر العيون من عجائب البيان.

يقول الدكتور المطعني بعد أن ذكر آيات ورد فيها لفظ (امرأة): "من النظر في الآيات التي ذكرناها يتبين لنا الآتي: أن القرآن يُؤثر أن يُطلق على زوجة الرجل كلمة (امرأة) إذا اختلت عُرى الحياة الزوجية أيا كان نوع هذا الاختلال سواء كان بموت أحد الزوجين مثل: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1] أو حدث نزاع بين الزوجين سواء أدى إلى طلاق أو لم يؤد مثل: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً﴾[2] أو لاختلاف الدين بين الزوجين، مثل: ﴿وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ﴾[3] لأن امرأة لوط -عليه السلام- كانت على دين قومها، أو كانت العلاقة الزوجية قائمة على غير دين صحيح مثل ما جاء عن أبي لهب وامرأته: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾[4] لم يقل: زوجة، أو كانت الحياة الزوجية لا إنجاب فيها مثل: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً﴾[5]، أو كانت المرأة غير ذات زوجه مثل ما

---

(1) سورة: آل عمران - الأية: ٣٥

(2) سورة: النساء - الأية: ١٢٨

(3) سورة: هود - الأية: ٨١

(4) سورة: المسد - الأية: ٤

(5) سورة: مريم - الأية: ٨

جاء في ابنتي شعيب: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [1]، أو كان الزوج لا مدخل له في المعني المراد مثل ما جاء في الشهادة على الدين: ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [2] فالشهادة تصح من المرآة سواء كانت ذات زوج أو لم تكن.

والسر في هذا والله أعلم: أن المرأة أو الزوجة في الحالات التي أشرنا إليها ليست أهلاً للوصف بـ(الزوج) أو الزوجة لأن معاني الزوج في اللغة (الاثنان) المضموم أحدهما إلى الآخر، ولذلك سُمي الزوج زوجاً مضموماً إلى (زوجته) وسميت الزوجة زوجاً مضمومة إلى زوجها، وهذا الضم لا يكون على كماله إلا في حالات الوئام التام والوفاق الكامل والصفاء الخالص بين عميدي الأسرة، والعقم سواء كان من الرجل أو المرأة أو هما معاً يهزّ العلاقات الزوجية ويوهن الروابط بينهما ويعرض اقترانهما للزوال.

وانظر مثلاً إلى نبي الله زكريا وهو يشكو حاله إلى ربه من دبيب الشيخوخة إليه وعقم امرأته: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً﴾ [3]

قارن هذا بما جاء في سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [4] لقد كانت في سور آل عمران ومريم (امرأتي) حين كانت عاقراً أما هنا في الأنبياء فقد أصبحت (زوجة) لأن وصف العقر زال عنها، وأنجبت يحيى، أرأيت كيف ضنّ القرآن عليها بوصف (الزوجة) لما كانت عقيماً لا تلد؟

---

(1) سورة: القصص - الآية: ٢٣

(2) سورة: البقرة - الآية: ٢٨٢

(3) سورة: مريم - الآية: ٥- ٨

(4) سورة: الأنبياء - الآية: ٨٩-٩٠.

وكيف سخابه عليها في الأنبياء لما أصلحها الله للإنجاب؟ أرأيت مثل هذا الصنع البديع في كلام أحد غير الله؟ إنه للإعجاز الإلهي في أدق وأعمق معاينة.[1]

وقبل أن أترك الحديث عن المرآة والزوج لابد من وقفة مع ما قاله زكريا -- عليه السلام -- متعجباً من بشرى الولد قال في سورة مريم: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ وقال في سورة آل عمران: : ﴿رب أني يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر﴾ ففي مريم قدم حال امرأته وآخر حال نفسه وفي آل عمران قدم حال نفسه وآخر حال امرأته فما سبب التنوع في الآيتين والقصة واحدة والمعنى واحد؟

وللإجابة على هذا السؤال نقف على ما ذكر الغرناطي حيث يقول: "إن المعنى وإن كان في السورتين واحداً وفي قضية واحدة فإن مقاطع أي سورة مريم وفواصلها استدعت ما يجري على حكمها ويناسبها من لدن قوله تعالى — في افتتاح السورة: ﴿كٓهيعٓصٓ * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [2] إلى قوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [3] فاقتضت مناسبة أي هذه السورة وُرود قصة زكريا -عليه السلام- على ما تقدم من الآي وما بعدها بمقطع مخصوص فجرت هي على مثل ذلك والله أعلم.[4]

ويبدو واضحاً من كلام الغرناطي أن تقديم حال امرأة زكريا - عليه السلام- على حاله في سورة مريم خلافاً لما ورد في سورة آل عمران ليس له غرض سوى تحقيق التناسب في الفواصل، وتحقق التناسب في الفواصل القرآنية، وإن كنت أرى انه مقصد مساوق للمعاني، والأغراض، لكن لابد في تعليل المخالفة في الترتيب فيما نحن فيه من غرض معنوي إضافة لتناسب الفواصل.

---

(1) دراسات جديدة في إعجاز القرآن، صـ١٦٢-١٦٤.

(2) سورة: مريم – الأية: ١- ٣

(3) سورة: مريم – الأية: ٣٣

(4) ملاك التأويل: جـ١ صـ١٩٨.

وحين نتأمل كل موضع في سياقه نجد من دواعي النظم ما يوجب تقديم المقدم، وأي محاولة لعكس الترتيب إنما تذهب ببلاغة النظم وسرّ إعجازه فتقديم حال امرأته على حاله في سورة مريم، إنما كان لأن زكريا -عليه السلام- أطنب في وصف حاله في مطلع السورة من قوله: ﴿رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً﴾ مما يعرف منه وصف نفسه، فكان حريا به أن يقدم وصف امراته على وصف نفسه، لأن وصفها مجهول، ووصفه قد علم من دعائه في أول السورة، وعكس هذاالنظم في آل عمران حيث قدم حال نفسه على حال امرأته لأن في آل عمران لم يتقدم شرح لحاله كما حدث في سورة مريم[1]

رابعاً: الليالي والأيام

ومما يبدو من دقائق النظم القرآني في نبأ زكريا - عليه السلام- استعمال لفظتي (الليالي والأيام) فعندما دعا زكريا - عليه السلام- ربه طالباً منه أن يجعل له علامة تدله على بداية الحمل بيحيي - عليه السلام- جاء قوله تعالى في سورة مريم: ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة ليال سويا﴾ وفي سورة آل عمران جاء قوله — تعالى -: : ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً﴾والقصة واحدة فلماذا تنوع التعبير من الليالي في مريم إلى الأيام في آل عمران؟

ويجيب عن هذا التساؤل العلامة الغرناطي قائلاً: "والجواب والله أعلم: أنه لما كان الأخبار مقصوداً به التعريف بمنعه الكلام (ثلاثة أيام بلياليهن) منصوصاً على ذلك حتى لا يقع احتمال أن يكون المنع في الليالي دون الأيام أو الأيام دون الليالي.....) فوقع التنصيص على الوقتين ليرتفع توهم إفراد أحد الوقتين دون الآخر".[2]

وإذا كان ذكر الليالي والأيام إنما كان لاستيفاء الوقت الممنوع فيه من الكلام، فأي وجه أدي إلى اختصاص مريم بالليالي، وآل عمران بالأيام؟ ويجيب عن هذا السؤال أيضاً العلامة الغرناطي فيقول: "وكذا في آية آل عمران يذكر الأيام ليناسب قوله: (إلا رمزا) إذا الرمز ما يُفهم المقصود

---

(1) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم، جـ٢ صـ٢٦٩.

(2) ملاك التأويل: جـ ١ صـ٢٩٩.

دون نطق كالإشارة بالعين وباليد، وقال مجاهد بالشفتين، وكيفما كان فإنما يدرك بالعين، وكما لم يذكر الرمز في آية مريم ذكر فيها الليل، وحصل التعريف باستيفاء الوقت الممنوع فيه الكلام، وما جعل له عوضاً منه وهو الرمز وزيد في آية مريم التعريف باستواء الليالي في ذلك فالمراد: مستويات، فـ (سويا) من صفة (ليال) انتصب على الحال، أو يكون المراد: لاخرس بك ولا مرض فيكون (سويا) مناسباً للفواصل ومقاطع الآي، وليس في آية آل عمران ما يستدعي ذلك فورد كلٌّ على ما يجب ويناسب والله أعلم".[1]

خامساً: العشي والإبكار

ومما يبدو من دقائق النظم القرآني في نبأ زكريا - عليه السلام - تقديم العشى على الإبكار في سورة آل عمران، وعكس هذا الترتيب في سورة مريم ففي مريم: قال رب **﴿اجعل لي آية* قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً فخرج على قومه من المحراب فأوحي إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا﴾** وعكس ذلك في آل عمران: **﴿ قال رب اجعل لي آية* قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار ﴾**

ويبدو من النظرة الأولى أن تقديم (العشى) على (الإبكار) في آل عمران وعكسه في مريم مرجعه إلى المحافظة على الفاصلة القرآنية، إذا لو قدم (عشياً) على (بكرة) في مريم لذهب تناسب الفاصلة التي بنيت عليها آيات سورة مريم.

وقد حمل الفخر الرازي على من يقول: إن القرآن يقدم ويؤخر لتوافق رءوس الآي، وعلل المخالفة في الترتيب بأغراض معنوية فقال: "إن توخي الأواخر راجع إلى السجع.

ومعجزة القرآن في المعني لا في مجرد اللفظ، فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع فيكون اللفظ حاملاً له على تغيير المعني، وأما القرآن فحكمة بالغة، والمعني فيه صحيح واللفظ فصيح فلا يُقدم ولا يؤخر اللفظ بلا معني"[2]

---

(1) ملاك التأويل: جـ١ صـ٢٩٩-٣٠٠.

(2)

لقد كان الرازي على حق في رفض أن يمحض تقديم اللفظ أو تأخيره لغرض لفظي هو مراعاة الفاصلة فقط بل لابد من تعليل المخالفة في الترتيب من أغراض معنوية فأي معني غير المحافظة على الفاصلة القرآنية استدعي تقديم العشي على الإبكار في آل عمران، وعكس هذا الترتيب في مريم؟

والإجابة على هذا السؤال نجدها فيما ذكره الدكتور محمد الخضري حيث يقول: "وقد حاولت أن أجد فيما قرأت من يستفتح عليّ في بيان سرّ التقديم والتأخير في الموضعين فلم أجد واحتجب عني هذا السرّ حتى كدت أسلم بانه ليس وراء ذلك من غرض سوى تحقيق التناسب في الفواصل –لكن الله- تعالى هداني بعد طول توقف إلى أن هذه المغايرة استدعاها تغير الخطاب، وذلك أن المخاطب المأمور بالتسبيح في سورة آل عمران هو زكريا -عليه السلام- والمخاطب المأمور بالتسبيح في سورة مريم هو من أُرسل إليهم زكريا، وبين الخطابين والمقامين يقع الإعجاز في ترتيب النظم فزكريا قُدم معه العشيّ وتسبيحه فيه يستتبع قيام الليل والانقطاع إلى الله –تعالى- في هذا الوقت الذي يصعب على غير المقربين مواصلة العبادة فيه، ولذا أمر النبي - ﷺ- بقيام الليل، وقدم على تسبيح النهار في قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ* قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [1] وقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً* إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ [2] فنبه إلى أن العبادة بالليل أشد ولا يواصلها إلا أصحاب العزائم من المقربين، أما غير الأنبياء والمقربين فإن جُلّ تسبيحهم وصلاتهم بالنهار على قدر ما يطيقه عامة المؤمنين لذا قدم ما هو الغالب على عادة الناس في خطاب زكريا لقومه." [3]

---

(1) سورة المزمل – الأية: ١-٢

(2) سورة المزمل – الأية: ٦- ٧

(3) من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية، صـ٣٣-٣٤.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على من لانبى بعده وعلى آله وصحبه- رضى الله عنه.

وبعد،،

فقد تم بحمد الله -تعالى- هذا البحث (نبأ زكريا- عليه السلام- دراسة بلاغية في القرآن الكريم) ويمكن إجمال أهم نتائج هذا البحث فيما يأتي:

أولاً: للقصة القرآنية نهج متميز في بنائها وصياغتها الدقيقة التي تقوم على الإيجاز البديع بطيّ المشاهد الجزئية، والتفصيلات التي لا يتعلق بها غرض اعتماداً على فهمها من السياق ووحي العبارات، وهذا راجع إلى أنها تركز على جانب العظة والعبرة، ومن هنا فلا تسرد الأحداث سرداً تاريخياً، ولا تراعي ذكر كل صغيره وكبيرة.

ثانياً: يُعد نبأ زكريا -عليه السلام- من أقصر القصص في القرآن الكريم وقد تنوعت حلقاته واشتملت على ضروب من العظات، وألوان من الدلائل البينات على رحمة الله -تعالى- وقدرته التي لا تحدها حدود، ولا تقف دونها الأسباب.

ثالثا: سلك النظم القرآني مسلكا معجزاً في حكاية نبأ زكريا -عليه السلام- وذلك بتلوين الأسلوب وتنويعه في المشاهد المكررة وإضافة أحداث لم تذكر وتفصيل وقائع لم تفصل طبقاً لمقتضيات المقام، وبذلك يبدو المشهد جديداً في شكله ومضمونه.

رابعا: تعددت مظاهر التنوع في الأساليب المتشابهة والمواقف المتقاربة وقد وقفنا فى دراستنا لهذا الجانب على أسرار دقيقة في النظم القرآني تقرر ما ذكره العلماء من أن لكل كلمة فيه موقعاً خاصاً تتلاءم معها ولا تصلح في غيرة ولا يصلح لغيرها.

خامساً: للخصائص البلاغية في نبأ زكريا -عليه السلام- جانب كبير في إبراز المعاني المقصودة وإظهار الأغراض المرادة، ومن هنا برزت هذه الخصائص في ثنايا ما يحكيه القرآن عن زكريا -عليه السلام- فلم يخل منها تعبير ولا أسلوب بل لم تخل منها كلمة ولا لفظة.

وفي الختام أتوجه إلى الله العلي القدير أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم اللهم اجعل عجلتنا إلى طاعتك ولا تجعلها في معصيتك واغفر لنا ما تجاوزنا عن مرادك واحسن جزاءنا فيما هديتنا إليه من أسرار كتابك إنك أنت العفو الكريم.

الباحث

إبراهيم حسن أحمد

مدرس البلاغة والنقد

كلية الدراسات — جامعة الأزهر

المصادر والمراجع

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود، القاهرة دار الفكر.

٢- أساليب الاستفهام في القرآن الكريم للدكتور/ بسيوني عبد الفتاح ، فيود بحث دكتوراه، مخطوط بكلية اللغة العربية، بالقاهرة تحت رقم ٣٠٣٢.

٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقطي، ط المدني ١٩٦٥م.

٤- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ للدكتور محمد الأمين الخضري ط، أولى مطبعة الحسين ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٥- إعراب القرآن وبيانه، لمحي الدين الدوريش، بيروت.

٦-الإيضاح بتعليق عبد المتعال الصعيدي، للخطيب القزويني، مكتبة الآداب.

٧- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلس، لبنان ، دار الفكر ط٢، ١٤٠٣هـ.

٨- البلاغة القرآنية في تفسير، الزمخشري، للدكتور محمد أو موسى، مكتبة وهبة.

٩- التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤.

١٠- تفسير النسفي -القاهرة، عيسى الحلبي.

١١- تفسير المنار، للسيد محمد رشيد رضا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م

١٢- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم للدكتور/ عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة.

١٣- جامع البيان عن تأويل أي القرآن، لابن جرير الطبري، بيروت،دار الفكر، ١٤٠٥هـ.

١٤- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله القرطبي، دار الكتاب العربي ١٩٦٧م.

١٥- حاشية الشهاب، على البيضاوي، بيروت، دار صادر.

١٦- حاشية الجمل على الجلالين، القاهرة، عيسى الحلبي ط٢، د.ت.

١٧- خصائص التراكيب للدكتور/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة ط٢، ١٤٠٠هـ.

١٨- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، دمشق، دار العلم ١٩٨٧م.

١٩- درة التنزيل وغرة التأويل، للخطيب الإسكافي، بيروت، دار الأفاق الجديدة، ط٣، ١٩٧٧م.

٢٠- دلائل الإعجاز، لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني ت محمود شاكر، مكتبة الخانجي.

٢١- دراسات جديدة في إعجاز القرآن، للدكتور عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة ١٩٩٦م.

٢٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة الألوسي، بيروت، دار إحياء التراث العربي ١٩٨٥م.

٢٣- شرح أحاديث من صحيح البخاري، للدكتور محمد أبو موسى، مكتبة وهبة.

٢٤- عروس الأفراح من شروح التلخيص، لبهاء الدين السبكي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٥- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للنيساوبوري، مصطفي الحلبي، اولى ١٣٨١هـ

٢٦- فتح البيان في مقاصد القرآن للإمام صديق حسن خان، القاهرة، مطبعة العاصمة.

٢٧- الكشاف للإمام الزمخشري، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ

٢٨- لسان العرب لابن منظور، القاهرة، دار المعارف.

٢٩- محاسن التأويل، لجمال الدين القاسمي ط أولى، عيسى الحلبي ١٩٥٧م.

٣٠- المحرر الوجيز لابن عطية، مكتبة ابن تيمية ١٩٩٢م.

٣١- المطول، لسعد الدين التفتازاني، القاهرة مطبعة احمد كامل.

٣٢- مفتاح العلوم، للسكاكي، بيروت، دار الكتب العلمية ط أولى، ١٩٨٣م.

٣٣- المفردات للراغب الإصفهاني، ط أخيرة ، مصطفي الحلبي.

٣٤- مقاييس اللغة، لابن فارس، ت عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، إيران.

٣٥- من أسرار التعبير القرآني، للدكتور/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ١٩٩٦م.

٣٦- من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية، للدكتور محمد الأمين الخضري، بدون ناشر، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

٣٧- من بلاغة النظم القرآني، للدكتور بسيوني فيود، مطبعة الحسين ١٤١٣هـ

٣٨- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي،مكتبة ابن تيمية، ط أولى، ١٩٧٢م.